الطريق الى سراييفو

تأليف
غالب حمزة

دار القلم العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م

عنوان الدار

سُورِيَة ـ حَلَبْ ـ خَلفَ الفُنْدُقِ السِّيَاحِي

شارع هدى الشِعْرَاوي

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١، ٢١، ٠٢١

(الفصل الأول)

امتلأت عيناي بالدموع وأنا أواصل قراءة كل ما كتب عن البوسنة والهرسك . لم أكن أظن بأن هناك في الدنيا وحوشاً كهؤلاء الصرب الذين أجادوا صناعة القتل والتعذيب والاغتصاب ، وطالعتني في منامي صور الفتيات المؤمنات من بنات البوسنة والهرسك وقد اعتدى عليهن قساة الرجال في همجية جاوزت كل همجية .

الكلام كثير ، والناس يقرؤون ، والذين يشاهدون المآسي يرونها دون أن يتحرك في جوانحهم شيء يوقف هذا النزيف الذي أصاب هذه الأرض المسلمة التي ارتوت بدماء الشهداء .

عَزّ عليَّ أن أرى كل ذلك ، ثم أقتعد بيتي دون أن أصنع شيئاً ، فهذه الأصوات الناعمة التي ارتفعت ببكائها لتوصل صوتها إلى العالم الذي كنت أظنه قادراً على أن يصنع شيئاً ، لكن كل الذي قلته لنفسي لم يمنحني الراحة ، فالصرب على مدى التاريخ كانوا هم الطغاة الذين يقتلون الزهور في شوارع المدينة .

كم امرأة شقراء من بنات البوسنة ودعت الحياة وهي ترفع يديها إلى السماء تطلب القصاص من هؤلاء المجرمين ، وكم من الأطفال راح ضحية بقر البطون حيث كان الجيش الصربي يتسلى

بالقتل ، ويتحدث في قسوة عن المقابر الجماعية التي أدخلوا بعض الرجال البوسنيين بعد أن رشوهم بالرصاص .

سعيد ، ذلك الرجل العجوز الذي تلقى ركلة الجندي الصربي وهو يدفع به إلى القبر لم يكن قد قضى نحبه .. لكن المشكلة ليس أن يموت الناس عند هؤلاء البرابرة ، وإنما المشكلة هي أن يدفنوهم في قبر واحد يحفره بعضهم لأنفسهم والبعض الآخر .

نادوجا ، في ربيعها السابعَ عَشَرَ كانت تبكي وهي ترى أسرتها صريعة أسلحة القوم ، وكانت تأمل أن تلحق بهم ، لكن قائد المجموعة لم يكن يريد ذلك فهو يريد أن يشبع نهمه من هذا الجسد الذي ذبل . أمسك بها من شعرها ومضى يجرجرها على الأرض في قسوة حتى إذا ما التقت بسكين صغير ظهر أمام وجهها فجأة أمسكت به وقامت لتمشي على رجليها ، لكنها لم تكن خطوات حتى استطاعت الصغيرة أن تقتل صائدها بهذه السكين المفاجئة . لم يمهلها القوم بل مضت كوكبة من العسكر تضغط على زناد البنادق لتخترق جسدَها آلافُ الرصاصات .

رأيت وجهها في منامي وكأنها تبتسم لأنها هربت بالموت من جريمة الاغتصاب التي يمارسها هؤلاء البرابرة :

أفقت من نومي مذعوراً ، هرب النوم من عيني جلست القرفصاء على مقربة من جهاز التلفزيون الذي كان يبث في تلك اللحظة صوراً من مآسي البوسنة ورجال البوسنة وبنات البوسنة وأطفال البوسنة وحريم البوسنة .

كانت الصور أشد قسوة من كل الكلام الذي كنت أقرأه ، فقد التقيت في هذه الصور بنماذج غريبة من العمل الإجرامي يمارسه هؤلاء القساة مع الرجال والنساء والشيوخ ، لا يردعهم رادع ، وكأنهم عايشوا الشر فاستحوذ على قلوبهم الصلدة ، وتتابعت صور أخرى على ذاكرتي وأنا في مجلسي ، تذكرت زينب الفتاة البوسنية التي كانت تَدْرس في كلية الآداب في جامعة القاهرة مع أختي ، وتذكرت يوسف صديقي الذي كان يدرس في الأزهر .

كانت زينب ابنة عمه ، وكنت أعجب بهذه الفتاة ، ألمح في عينيها إيماناً بدينها رغم أنها تعيش في الغرب . ولقد حاولت أن أُفْهِمها ما يجيش في صدري تُجاهها ، لكني كنت أهاب الموقف حتى جاءت أختي بعد أن أحست بي تعمل في نفس اتجاه تلك الصبية ، وسألتني عما إذا كنت أحبها ؟

لم أقل لأختي شيئاً ، وإن كانت قد طالعت الحقيقة في عيني .

ولكم حاولتُ أن أتحدث إلى يوسف عن هذا الذي يتأجج في صدري من حب لهذه الصبية التي لم تفارق ذاكرتي أكثر من عامين ، هي أعوام المعرفة . فقبل هذا التاريخ لم تكن هي ولا هو ولا أنا في الجامعة المصرية ، لكني كنت أضن عن أن أقول شيئاً ، ربما لأن تربيتنا في بلادنا لا تسمح لنا أن نتحدث عن هذا الوافد الذي يتسلل إلي ضلوعنا فجأة .

زينب وأختي صديقتان ، وأنا ويوسف صديقان ، وهكذا كنا نجتمع كثيراً في بيتنا .

كانت أمي سيدة طيبة تحدب على زينب كثيراً ، وتحبها من كل قلبها حتى إنها في يوم من الأيام فاتحتني قائلة : لماذا لا تتزوج زينب ؟

ونظرتُ إلى أمي كالأبله ، وقلت : وما يدريك أنها ترضى ؟ ثم لا تَنْسَيْ أن أهلها في البوسنة .

قالت : لا عليك ، فأبوك تزوجني وأنا وأهلي كنا نعيش في هولندا ، لم يعرف عني شيئاً حتى جئت أنا وأمي وأبي إلى مكة المكرمة لأداء الفريضة ، ويومها طلب أبوك يدي ، فقبل أبي ،

فرحت أنا كثيراً لأنني سأسكن في أعز البقاع إلى رسول ا لله عليه الصلاة والسلام ، وهكذا جئتَ أنت وجاء إخوتك وأخواتك .

لم أجب بشيء . وتركت أمي تتحدث طويلاً ، حتى جاءت أختي وقطعت علينا الحديث قائلة : استمعت إلى كل ما تقولينه يا أمي ، لكن المشكلة أن زينب مخطوبة ليوسف ، وهذا فَتَّ في عضدها وعضدي .

نسيت أمي الحكاية ، لكنني لم أنسها ، لأنها ظلت تؤرق ليلي رغم أني حاولت أن أنأى كثيراً عن زينب حتى ذلك اليوم الذي التقيتها به .

قالت زينب : أراك تهرب مني دائماً ، ولا أدري أسباب هذا الهروب إلا إذا كان كلام أختك سبباً فيه .. لهذا أود أن أقول لك : لقد ارتبطت أسرتي بأسرة يوسف ، فهو ابن عمي ، وقُرِئت الفاتحة على أن أكون زوجته وعمري ثلاث سنوات :

أخلدت للصمت قليلاً حتى سمعتها تقول : صدقني ، لو لم يكن الأمر كذلك لكنت أنت عريسي .

ظننت أنها تريد أن تهوّن عليَّ الخبر الذي سمعت من أختي ، لكنها كانت تقول الحقيقة .

فزينب كانت تحبني هي الأخرى في صمت ، لكنها أبعدت عن قلبها شبح الحب وانخرطت في الدراسة لتعود إلى وطنها بأسرع ما يمكن .

عندما عرفت هذه الحقيقة أحسست بشيء من الفرح ، لكنه كان أقصر مما أردت ، وأرادت زينب ، فقد طلب يوسف أن يعقد قِران زينب في القاهرة ، وجاء أهل زينب . استقبلتهم أمي أجمل استقبال ، وجاءت مع أم زينب أختها (ناجية) التي تصغرها ، وإن كانت قد بدأت تمارس عملها قبلها .

ناجية فتاة أنيقة ، لكنها على نقيض زينب ، شعرها الأسود أشبه بالليل وهو ينسدل على أكتاف الصباح لتبدو إشراقة الفجر من خلال جبهة عريضة تبدو عليها معاني الكرامة والكبرياء .

بعد أن أُجرِيَت مراسم عقد القِران قضى الضيوف سهرة دافئة في بيتنا .

اشترك الجميع في تقديم الهدايا للعروس التي أخذت تَميسُ دلالاً بفستانها الزهري الأنيق وشالها الذي اختارت لونه من لون خدها .

عيناي أخذتا تتسللان إلى وجه زينب تارة وإلى ناحية تارة أخرى ، ولكني كنت أحس بكثير من الاضطراب عندما تضبطني زينب وأنا أواصل نظري إلى وجهها . ليلتها لم أنم ، كنت أشبه بإنسان فَقَدَ كل شيء حتى قطعة الخشب الصغيرة التي يتعلق بها الذين يغرقون في البحر لم تكن معي . ربما لأنني كنت فعلاً أحب زينب في صمت ، وربما لأن زينب هي الفتاة الأولى التي أتحدث إليها بصدق أثناء دراستي .

وارتفعت درجة حرارتي ، وأحست أمي وأختي بما أعانيه ، أصرت أختي على أن تأتي بالطبيب ليراني ، وبعد أن رآني طلب مني أن أرتاح بعض الشيء وقال لأمي : عارض سطحي بسيط نتيجة جهد جسماني كبير . ضحكت أختي من تشخيص الطبيب ، وأعادت النظر إلى وجهي . أحسست ساعتها بأن عليَّ أن أجاملها في ضحكاتها .. ابتسمتُ في هدوء وأخذتُ أُمضي بعض الساعات على فراشي حتى إذا ما أحسست بالعافية تتسلل إلى جسدي غادرت الفراش وأنا أنتظر أن أرى زينب ، لكن زينب كأي أنثى كانت مشغولة بعريسها ، وهذا في رأيي حقه وحقها ، فكيف يحق لي أن

أفكر في شأن امرأة متزوجة ! لمت نفسي كثيراً وقلت : لا بد من أن أنتزع هذا الحب من قلبي بأية طريقة . لكنني لم أستطع .

في اليوم الثاني التقيت وزينب وزوجها وأمها وأختها . أما أبوها فقد اضطر للسفر إلى الإسكندرية ليرى أختاً له لم يرها منذ زمن طويل بعد أن تزوجت بطبيب مصري .

أمضينا ذلك اليوم في القناطر ، كان الجميع يمرح ويلهو ويضحك إلا أنا فقد بقيت أفكر كثيراً أحاول أن أنسى هذا الحب الذي يجب أن يموت .

وتعاودني الذكريات تطل بكل أشجانها ... لقد عشت أيامي تلك في القاهرة تتجاذبني أفكار غريبة : لكنني كنت أحاول أن أبعدها عن خاطري لأنها لا تنسجم والمبادئ التي عرفت : ومع هذا أطلت ناجية على حياتنا بكثير من البهاء كنت أراها كذلك حتى إذا ما حاولتُ أن أقارن بينها وبين أختها تلاشى ذلك البهاء بعد أسبوع من عقد قران من أحببتها في صمت .

جاءتني زينب وفي يدها وردة حمراء : خلتها تكاد تقفز من بين أصابعها لكنها لم تفعل ، بل أعطتني إياها في هدوء ثم سألتني بشيء من الجدية ما رأيك في أختي ؟

قلت : يكفي أنها أختك .

نظـرت إلى وجهي نظرة حانيـة وقـالت : ليـس هـذا الـذي أعنيه ، ولكن ألا تعتقد أنها ستكون زوجة صالحة ؟

قلت : ومن يقول غير ذلك ؟

أعادت النظرة مرة أخرى بشيء من العبث وقالت : ما رأيك في أن تقترن بها ؟

قلت : ومن قال لك إنني أريد أن أتزوج ؟

عندمـا وصلنـا إلى هـذا الحـد مـن الكـلام جـاءت أختـــي ، فسكـتت زينـب لكن أختي على ما يظهر كانت داخل المؤامرة لأنهـا طلبت من زينب أن تكمل حديثها .

زينب رفضت أن تواصل وقـالت لأخـتي : لا عليـك فهـو لا يريد أن يتزوج.

سنوات مرت على هذه الصور لكنها عــادت تطـل مـن بـين صفحـات ذاكرتـي في تلـك الليلـة تؤرقـني ، وتشـدني إلى دقائقهــا ، وتعيدني إلى عالم كان أشبه بالحلم الجميل .

(الفصل الثاني)

العالم لم يعد كبيراً . استطاعت وسائل الاتصال أن تمنحنا جميعاً فرصة التعرف على أقصى الأرض في سويعات معدودات ، لهذا لم تعد مشكلات أي بلد وقفاً على البلد نفسه ، فالتلاحم الذي صنعه عصر الاتصالات جعل الناس في كل مكان يَعُونَ ظروف حياتهم وحياة الآخرين ومشكلاتهم .

في متل هذه الظروف كنت أعيش أيامي ، أفكر في هذا العالم وتناقضاته وأنظر إلى كل تلك المشكلات التي تطفو على السطح لأجد أن مشكلة البوسنة والهرسك أكبر من أن يتصورها الإنسان ، فالإنسان – هذا الكائن الحي الذي تمتزج في دمائه أحاسيس كثيرة – يتناول قضايا الآخرين تارة بالحب ، وتارة بالكره وتارة بين بين .. لكننا لو درسنا الناس في كل مكان في هذا العالم لوجدناهم يشجبون هذا الذي يجري في سراييفو ، حتى الفنانون الذين يعيشون في أقاصي المعمورة تجاوبوا مع هذه الأحداث وكتبوا عنها أشعاراً وقصائد غنتها العامة والخاصة ، وأفردت لها الصحف المقالات الكثيرة ،ورآها المشاهدون على شاشة القنوات الفضائية كأكبر جريمة يرتكبها هؤلاء القساة الصرب في حق الإنسان المسلم في سراييفو ..

ما عدا روسيا التي أخذت على عاتقها مساندة الصرب ، لكن لو سألت أي إنسان يعيش على أرضها لشجب هو الآخر ما يجري على أرض البوسنة والهرسك ، واستنكر جرائمهم ومساندة بلاده لهم .

هذا الوجه الكريه للصرب أخذ يطفو على السطح لدرجة جعلت أقرب المقربين له ينأون بأنفسهم عنه ، وبدأت حملة الصحافة الأمريكية تعطي أُكُلَها وتأثيرَها في نفوس الناس الذين يقرؤون ويفهمون .. لقد بلغت الأيدي القذرة الشجر والثمر وقتلت الزهور البريئة التي تطل على هذه الدنيا بمنظار الطفولة البريئة وغدا العالم كله يعي حقائق الجريمة المنظمة التي ترتكب في البوسنة والهرسك . فالصرب لم يعودوا قساة القلوب فقط وإنما أصبحت وحشيتهم مظهراً من مظاهر وجودهم على الأرض .

في قراءاتي المتعددة عن الإجرام الذي يرتكب في البوسنة كنت أحس بالألم يعتصر قلبي لدرجة تجعلني أجهش بالبكاء على كل هذه القسوة الإجرامية التي تمارس على أرض سراييفو .

كنت أشعر بالألم للامبالاة العالمية التي تعالج بها القضية ، وأحمل على مجلس الأمن وهيئة الأمم وحلف الأطلسي هذا الصمت الذي كنت أظنه سيستمر... لكنه لم يستمر و لله الحمد .

****

الرسالة التي تلقيتها من زينب كانت ثالث رسالة تصلني منها بعد أن عادت إلى بلادها وبعد أن عدت أنا الآخر إلى مسقط رأسي . كانت الرسالة تقطر حزناً وأسى وألماً ، فزينب رأت بعينها الصرب وهم يقتلون زوجها ويجعلونها تحفر قبره بيديها ، حتى إذا ما انتهت ودفن الزوج احتضنت أصغر أطفالها لتغادر سوق البهايم إلى المكان الذي أعد لمتيلاتها في مدينة أخرى . لم يرحموا طفولة ابنها بل انتزعوه من بين يديها وهم يقولون : سنأخذه ليعيش في مكان آخر مع أسرة تعرف كيف تربيه ، ومن يومها لا تدري زينب أين هو طفلها ؟ والذي ظنت أنه سيؤنس وحدتها بدلاً من والده الذي اغتيل ، لكن وليدها ذهب ولا تدري أين هو ، ولهذا فهي حائرة لا تدري ما

تصنع . أكثر من مرة فكرت بأن تقتل نفسها ، ثم تعود عن هذه الفكرة لأنها مسلمة ، والإسلام لا يجيز هذا العمل .

رسالة الأسى والحزن التي بعثت بها زينب إليَّ أعادتني مرة أخرى لأن أعيش في جو سراييفو التي أحببتها و لم أرها ، فقد كانت تصفها لي زينب عندما كنا على كراسي الجامعة ، لكن سراييفو اليوم أصبحت غيرها بالأمس ، لقد فقدت هذه المدينة كل مظاهر الحياة .. أصبحت مدينة أشباح تخلو من الحياة لأن الصرب أرادوا لها ذلك .

هكذا قالت زينب لي في رسالتها الدامية التي حاولتُ أن أتم قراءتها ، لكن صدقوني لم أستطع ذلك ، ربما لأن بشاعة صور الإجرام التي ارتكبها الصرب ضد المسلمين والمسلمات جعلتني لا أقدر أن أقرأ كل ما وصفته في رسالتها التي استطاعت أن تهرّبها بأسلوب أو آخر .

ترى ماذا يخبئ القدر لسراييفو .. هل ستعود هذه المدينة إلى سابق وضعها أو أن العالم رغم كل الذي يراه قد نسيها ليطويها الزمن ؟

في تلك اللحظة أحسست أن المسلمين في سراييفو سيعودون إلى ممارسة حقوقهم مهما طال الزمن ، فالتضحيات التي

يقدمها إنسان هذه المدينة تجعلني أؤكد على هذا وأصدق ، وأخذت أكتب رسالة مطولة أجيب فيها عن كلمات زينب ، لكنني – وفي منتصف الكتابة ـ توقفت ، وتذكرت كيف يمكن لي أن أوصل هذه الرسالة ، فأنا لا أعرف أين هي ، وفي أي سجن ، وهل يمكن لسجانيها أن يوصلوا لها رسالتي ، لو كنت أعرف العنوان ؟ وتضاربت في ذهني شتى الأحاديث والصور وأخذت صور الماضي تطل في رتابة وكأنها تحاول أن تنقذني من شر هذا العذاب الذي ألقاه .

في تلك اللحظة تساءلت بيني وبين نفسي : وماذا عن أختها هي الأخرى . ولما لم أجد الجواب عدت لقراءة كتاب زينب مرة أخرى ، كانت كلمات الخطاب أشد قسوة من رمي الحجارة على رأس أي إنسان . أحسست أن زينب في مأزق كبير وأحسست بأنني شخصياً غير قادر على إخراجها من هذا المأزق . مضيت في قراءة الرسالة ، وعرفت في النهاية أن أخت زينب وزوجها وخمسة أطفال أكبرهم سناً في السادسة عشر من العمر قتلتهم يد الغدر ، وهم في بيتهم آمنون مطمئنون ، كان هذا القتل قبل موت زوج زينب بأسبوع ، عفواً لم يمت زوج زينب قضاءً وقدراً ، وإنما قتل بأيدي

مجرمين عتاة عاثوا في أرض سراييفو قتلاً وفساداً . ومضيت أللم دمعات حارة انحدرت على خدي في صمت ، لكنه كان صمت الحزين المقيد الذي لا يعرف ماذا يصنع .

أحسست ساعتها بالألم ، فزينب لم تعد مجرد مواطنة في البوسنة والهرسك وأختها وأطفالها أيضاً ، وإنما هي أخت مسلمة أضيرت بيد آثمة غادرة لا تعرف الرحمة ولا الإنسانية .

ومضيت أكتب مقالي في الجريدة التي أعمل بها ، فقد نسيت أن أقول لكم بأنني بعد عودتي من الدراسة عملت في الصحافة في وقت كان فيه الخريجون يتلهفون على العمل الوظيفي في الدولة .

ربما لأن الكلمة المقروءة قد أسرتني وأسعدتني حيناً من الزمن ، وأزعجتني وأتعبتني حيناً آخر ، لكني على كل حال هاوي صحافة ، والذين يهوون العمل الصحفي يدركون مدى السعادة التي يحس بها كل من يمارس هذا العمل .

طائرات حلف الأطلسي تضرب الصرب ، لكنه ضـرب غـير موجع ، وكأن هذا الحلف هو الآخر يربّت على ظهور هـؤلاء القتلة بما يفعل ، أو ربما لأن هناك رأياً سياسيّاً معيَّناً ينتظـره الحلـف ليؤدب هؤلاء القساة .

****

الناس في الطريق إلى المسجد الحرام وأنـا مـن ضمنهـم لأداء فـريـضة الـظهـر لم أحس ساعتها بمن كـان حـولي ، مضيـت إلى المسجد ، لأطوف بالبيت ، حتى إذا ما انتهيت وقفـت أمـام الكعبـة رافعـاً يـديَّ أدعـو بحرقـة وألم بـأن يزيـل ا لله سبحانه وتعـالى ، هـذا الكرب عن هذا الشعب وهذه الأمة المسلمة .

لم أشعر باليد التي ربتت على كتفي إلا بعد لحظـات ، حتـى إذا ما أدرت رأسي نحو الرجل الذي لم أكن أتصور أن أجده هنـاك ، فقـد كـان واحـداً مـن أصدقـائي الذيـن يعيشـون في لنـدن ، قـال لي

الصديق : ترى ماذا أصابك ، فلقد تابعتك في الطريق حتى المسجد ، وحاولت أن أشعرك بوجودي ، لكنك لم تحس بهذا الوجود .

ابتسمت في هدوء ، ورحبت بالصديق ، وقلت له : سأقول لك كل شيء .. كل شيء ، ولكن بعد حين .

(الفصل الثالث)

في أوروبا وأمريكا يقرؤون أشعار الطفلة البوسنية التي ترجمت بعضها إلى العربية ، والتي كنت ألاحقها عندما تأتينا عبر وكالات الأنباء . الأسى والتفجّع صفتان لازمتا الطفلة كما لازمتا أسرتها ، وأهلها وأهل سراييفو جميعاً ، لكن كل هذه الأشعار كان يتلاشى بعض صداها عندما ينصرف الناس إلى أعمالهم .

ابني قال لي بأنه كتب هو الآخر قصيدة عن سراييفو ، قرأها علي أحسست بنبضات قلب ابني تدق وهو يضغط على أحرف كلمات القصيدة ليوصلها إلى قلبي وعقلي . أعجبتني القصيدة ، لكنني خفت أن أنشرها حتى لا يقال بأنني أحاول تلميع ولدي ، لهذا اكتفيت بأن بعثت بها إلى حفنة من الأصدقاء أعجبوا بها جميعاً وطلبوا إذا كان في الإمكان أن تنشر في أجهزة الراديو والتلفزيون وحين سمع ابني كلام بعض الأصدقاء أخذ يلح عليّ أن أبعث بها إلى أحد أصدقائي من المطربين قلت له : سأفعل ، لكنني لم أفعل ، ربما لأنها لو جاءت من إنسان غير ابني لفعلت .

****

تتراكم الأحداث على صدري ، أحس بثقل وقعها على نفسي . تزداد صور الإجرام بشاعة وتبدو وكأن هؤلاء الجلادين لا يعرفون في حياتهم شيئاً غير القتل .

استغربت عندما عرفت بأن رانكو ميلادتش شاعرٌ ، وقلت لنفسي : لا بد أن شعر هذا الرجل هو من الشعر الأسود وإلا أين ضاعت رهافة حس الشاعر وشفافيته ؟ ، وهل يمكن أن يمسك شاعر بسكين ليقطع رقاب ضحاياه في قسوة ووحشية ، لا لذنب ارتكبوه ، وإنما لأنهم من عقيدة غير العقيدة التي ينتمي إليها .

****

أختي تحدثت معي من باريس . كانت في رحلة إجازة هي وزوجها وأولادها ، كانت تتحدث بانفعال ، أحسستُ وكأنها تود أن تلقي بسماعة التليفون على رأسي ، سألتها عن السبب ، قالت : مشكلة أن لا تعرف السبب وأنت صحفي ألا ترى أو تقرأ عن هؤلاء الأطفال المسلمين الذين يرسلون إلى أي مكان في هذه الدنيا بعد قتل آبائهم وأمهاتهم ،رأيتهم بالأمس على شاشة التلفزيون يستقبلونهم

هنا بحب ، قد يكون هذا الحب بدافع الشفقة أو الإنسانية،

قلت لها : هوني عليك ، فنحن في بلادنا لا نتأخر عن مساندة أي مسلم له قضية في أي مكان ، ثم أنت تعرفين كم ندفع من أجل المسلمين في البوسنة ، لقد تشكلت أكثر من لجنة إغاثة ، جميعهم لخدمة المسلمين في البوسنة وإغاثتهم .

لم تسمع أختي كلمة مما قلت ، بل اندفعتْ مرة ثانية وهي تقول : أتعرف كم صحفي وصحفية غربية قضوا نحبهم في سراييفو كان هدفهم إطْلاع العالم على ما يجري على هذه الأرض ، دفعهم إلى ذلك حبهم لمهنتهم وتفانيهم . أما أنتم -وأعني الصحفيين العرب- فقد بقيتم على كراسيكم تنظرون إلى أجهزة وكالات الأنباء لتغطوا الأخبار التي تأتيكم . لم أسمع عن صحفي عربي أو مسلم قضى نحبه في البوسنة ، ولم أسمع عن أي صحفي عربي أو مسلم كتب شيئاً من مكان المشكلة كلكم تكتبون كلاماً زائفاً لا أصل له ، ولهذا تجدنا لا نحس بما تكتبون . خذ مثلاً أنت ، هل

فكرتَ أن تسافر يوماً إلى البوسنة ؟ لو قيل لك إن هناك دعوة موجهة من البرازيل لجريت مسرعاً وراء تلبيتها ، أما البوسنة وما يجري في البوسنة فلا شأن لك به ، لأنها لا تهمك إلا من زاوية أن تملأ صفحات جريدتك بالأخبار التي تردك ليقول القراء عن جريدتك : إنها مواكبة للحدث . وتنسى أن القارئ في بلادنا يعرف تقصيرك وتقصير زملائك ، وينعى عليكم تقاعسكم عن ملاحقة الخبر من مصدره بدلاً من كل هذا الذي تفعلون ، ثم أقفلتِ السماعة وتركتني أتيه في كل كلمة قالتها هذه الأخت ، فأنا أعرفها منذ أن كانت صغيرة لا تقبل أن تصمت عن الحق ، وهاهي ذي تلقي باللّائمة على رأس أخيها ومنذئذٍ أخذت أفكر كيف أستطيع أن أؤدي واجبي تجاه القراء ، فالطريق إلى البوسنة طويل وطويل جداً ، لكن تلك الأحداث التي تجري تحتم عليَّ أن أفعل شيئاً.

أخذت الفكرة تخترق أعماقي حتى أصبحت تلح عليّ بشكل عنيف لأحققها . في الصباح ذهبت إلى لجنة الإغاثة في جدة وتحدثت طويلاً مع المسؤولين عنها . أبديت رغبتي بأن أقوم بزيارة سراييفو . رحب الجميع بالفكرة وبدؤوا يتحدثون عن الطريقة التي يمكن أن أصل بها إلى سراييفو ، وخرجت وفي ذاكرتي بأن الأمور ستصبح

وفق رغبتي . في البيت سـألتني زوجـتي عـن الـذي يمكـن أن أفعلـه في سرابيفو ، أفهمتها كل مـا في أعمـاقي . هـابت الموقـف في البدايـة ، لكنني استطعت أن أقنعها بضرورة أن أفعل شيئاً .. لا يكفي ما سمعتـه من أختي مـن حديـث . قلـت لها عـن حديـث أخـتي ، لم تسـتغرب زوجتي كلام أختي ، فهي تعرفهـا جيـداً ، وتعـرف أنهـا لا يمكـن أن تخفي ما بداخل أعماقها .

ابني طلب مني أن يسافر معي ، رفضت وقلت له : المفـروض أن تبقى حتى إذا قضى ا لله و لم أعد كنتَ أنتَ ربَّ البيـت بـدلاً مـن أبيك .

لم يقتنع ابني بكلامي . ناقشـني طويـلاً ، أفحمـني بكلماتـه ، استغللت أبوتي وقفلت المناقشة ، لكـني بعـد أن نظـرت إلى وجهـه ، عرفت أنه لم يقتنع فهو من طينة عمتـه الـتي أعرفهـا وتعرفهـا زوجـتي ويعرفها ابني .

أمضيت الليل بطوله قلقاً أفكـر في الـذي يجـب أن أصنعـه في هذه اللحظة جاءتني دعوة للسفر للمشاركة في افتتاح الأكاديميـة الـتي تبرع بإنشائها الملك فهد في بون وكانت الصداقة التي تربطني بالسـفير

السعودي لا تدعني أعتذر . قلت في نفسي : لا بأس ، يمكن لي أن ألبي الدعوة ، ومن هناك أستطيع أن أسافر إلى سراييفو ..

حين وصلت إلى هذا الحد من التفكير ارتاحت نفسي وهدأتْ ، وشعرتُ بشيء من الراحة يلازم تفكيري ، لكن سراييفو بقيت تدعوني في أعماقي .

وبدأت أفكر هل سأكتفي بأن أكتب ما أراه ، أو أن عليَّ واجباً آخر يجب أن أصنعه ؟ . أحسست بأنني وصلت بتفكيري حول ما يعتمل في نفسي : لا يكفي أن أراسل جريدتي بما أراه ، بل يجب علي أن أحاول دراسة الوضع بشكل أكبر فقد أخرج من هذه الرحلة بكتابة قصة سراييفو بشكل أُظهِر فيه الأسباب والمسببات وأسلوب العلاج ، وأعود بالتاريخ إلى كل أحداث سراييفو السابقة ،فقد أستطيع بكتابتي هذه أن أقدم فكرة للناس عن هذه القضية وأبعادها .

وبدأت أخطط لفصول الكتاب وأكتب وأخزن بعض ما أكتب ، وهكذا أمضيت الوقت وأنا أعايش تفكيري ، حتى إذا ما جاء الصباح ذهبت إلى مكتبة الجامعة أبحث عن جميع ما صدر من كتب عن سراييفو عبر التاريخ ، وكتبت أسماء بعض الكتب ، ثم عدت إلى مكتبي لأطلب مكتبنا في لندن والقاهرة وبيروت وأطلب من

هنا وهناك شراء بعض هذه الكتب التي نويت أن أقرأها قبل أن أبدأ الكتابة . وعندما انتهيت من كل هذا الذي صنعت أحسست بالراحة ، فلربما حق لي أن أرتاح بعد أن هدأت نفسي ، وعرفت أقدامي الطريق إلى سراييفو .

(الفصل الرابع)

لأول مرة في حياتها تدعوني أمي لأن أتحدث معها في أمر هام ، كنت ساعتها في المكتب قلت لها : ألا تستطيعين أن تتحدثي بكل ما لديك عبر الهاتف ؟.

رفضت أمي بإصرار وقالت : بل يجب أن أراك بنفسي . أمي تقطن بجدة مع ابني الأكبر ، ومكتبي في مكة المكرمة . حاولت أن أعرف ماذا تريد هذه الأم لكني لم أستطع . سألت زوجتي عن الموضوع قالت هي الأخرى : لا تعرف شيئاً . بدأت أضرب أخماساً بأسداس ، إذ من الصعب أن أترك العمل في الجريدة وأذهب إلى جدة . طلبت من أمي هاتفياً أن توافق بأن تؤجل الحديث حتى وقت متأخر من الليل . قبلت على مضض بعد أن عرفت بأنني لا أستطيع أن أترك عملي وأذهب إلى جدة .

عندما ألتقيت بأمي وجدتها مضطربة . حدثتني عن رؤياها في نومها وقالت : لا أريدك أن تسافر إلى سراييفو .

ضحكت وسألتها عن السبب ، فحكت لي تفاصيل الحلم الذي شاهدته أكثر من مرة ، وقالت في شيء من الهدوء برضاي

عليك لا تذهب إلى سراييفو .. أكثر من مشكلة ستصادفك في هذه الرحلة .

سألتها في جدية : هل معنى هذا أنني سأقتل أو اغتال في هذه الرحلة ؟ قالت : لا .. لا هذا ولا ذاك ، لكن أشياء كثيرة ستراها بعينيك إذا أصررت على الرحلة .

قلت : ما دام الأمر لم يصل إلى الموت أو القتل ، وما دمت سأعود إليك فكل المشكلات ستهون يا أمي .

لقد عزمت على أن أكتب شيئاً عن هذه الأرض وعن الأخوة الذين تغتالهم يد الغدر ، وما أظنك تريدين مني أن أتقاعس عن أداء هذه المهمة .

عندما رأيت إصرارها ، حاولت أن أطمئنها بقولي : ما دمت تريدين ذلك فأنا لن أذهب ، وستكون رحلتي إلى المانيا فقط .

ربتت على كتفي وقبلتني في خدي وقالت : الله يرضى عليك ، أنت هكذا دائماً ذلك الابن الذي يستمع إلى كلام أمه ، ولهذا تجدني أدعو لك دائماً .

تركت بيت أمي وعدت مرة ثانية إلى بيتي لأجد نفس الكلام تحاول أن تعيده زوجتي على مسامعي ، فقد عرفت بأن أمي قد

أطلعتها على الرؤيا التي شغلت بالها ، وجعلتها تحاول أن تثنيني عن السفر . تركت زوجتي في الصالة وأخذت طريقي إلى غرفة النوم ، وقد خلا ذهني من كل ما قالته أمي ، كان تفكيري ينصب حول كيف أعد رحلتي إلى المانيا ومنها إلى كرواتيا فسراييفو في النهاية .

أمسكت سماعة الهاتف وطلبت أختي من باريس ، كانت هي التي ردت عليّ . قلت لها الحكاية ، وأفهمتها بأن أخاها لا يقل عنها إيماناً بقضايا هذا العالم الذي نعدّ أنفسنا جزءاً هاماً منه .

كانت أختي تتحدث معي بحب ، شعرت وكأنها عادت تلك الصغيرة التي أداعبها دائماً وأحاول إثارتها . لم تدعني أكمل الحديث حتى سألتني : هل وصلتك رسالة زينب ؟ قلت : نعم . قالت : لقد بعثت إليّ برسالة ، وقد بعثت بها إليك بالفكس لتقرأها ... ولذلك أطالبك بأن تبعث لي بصورة من رسالتها إليك بنفس الأسلوب . طمأنتها وقلت لها : سأفعل ذلك فور أن أنتهي من المكالمة .

عند هذا الحد شعرت بأن صوت أختي قد تغيّر. ربما أشاعت رسالة زينب في نفسها الحزن ، فأنا أعرفها تحب الناس وتحب زينب أكثر .. قالت : أتدري بأنني هنا على صلة بأسرة بوسنية ؟ فإذا قدر

لك أن تمر على باريس فسأقابلك بها لتتعرف على المآسي التي يلاقيها هذا الشعب . قلت وفي صوتي أنا الآخر شيء من الأسى نقلته لي أختي عندما تحدثت عن زينب . سيكون الله لهؤلاء الظلمة بالمرصاد أمّنت أختي على كلامي وودعتني ، وبدأت أدير قرص التليفون لأطلب من مكتبي أن يبعث بصورة الفاكس الذي بعثت به أختي إليّ في المنزل . و لم يمض سوى دقائق حتى كانت صورة الرسالة أمامي ، أحسست وأنا أقرأ الرسالة بأن هناك تفاصيل كثيرة كتبتها زينب لأختي ، ربما لأن المرأة تعرف كيف تكشف للمرأة عن الأحداث التي صادفتها . أظلمت الدنيا في عيني وأنا أقرأ تفاصيل اغتصاب زينب ومحنتها التي عاشتها في ذلك القبو الذي أسكنها الصرب فيه مع فتيات في عمر الزهور . هي وحدها التي تعدت الأربعين ، أما الأخريات فكن أجمل وأحلى منها لكنهن جميعاً لم يكن في صبرها على هذه المحنة .

قالت زينب لأختي في رسالتها : إن إحدى الفتيات قد قضت نحبها أثناء اغتصابها ، وإنها كانت في الرابعة عشرة من العمر لم تر الحياة و لم تعرف عنها شيئاً .

أحسست بخنجر مسموم يصوّب إلى صدري ، أهكذا يتعامل هؤلاء القساة مع الحرائر ؟ وددت لو كنت أستطيع أن أحمل البندقية لأكون ضمن أولئك الشباب الذين يدافعون عن أرضهم وعرضهم .. لم أنم ليلتي ، كانت صورة زينب وصور الفتيات اللواتي كن معها تطغى على كل صورة تمر بذاكرتي ، وأحسست بأن هناك جريمة كبرى ترتكب في حق الأمة الإسلامية ، وأن علينا جميعاً أن نهب هبة رجل واحد للدفاع عن مسلمي سراييفو وبنات سراييفو .

زوجتي أحست بما يعتمل في خاطري حاولت أن تقرأ الرسالة لكني مزقتها إرباً إرباً خوفاً من أن أزيد الألم في نفس هذه الزوجة التي تحملت نزواتي سنوات طويلة .

سألتني : لماذا مزقت الرسالة ؟ أليست هي من أختك .؟

قلت : بلى ، لكن كل ما فيها يثير الاشمئزاز والقرف من هؤلاء الأجلاف الذين يعيشون في القرون الوسطى ، فالصرب يا عزيزتي بلاء لا يمكن أن نصف قسوته على قلوب سكان سراييفو .

أحست زوجتي بالألم الذي يعتصر قلبي ، وشعرت بأنني لم أتألم مثلما تألمت بعد قراءة تلك الرسالة ، فلم تحاول أن تزيد أو تعيد كما تصنع المرأة ، بل أخذت تحاول أن تهدئ خاطري ، لكني كنت لا أقوى أن أجلس في أي مكان فقد أحسست بأنني ضعيف مثلها . لأنني لا أستطيع أن أدافع عن الحق في سراييفو.

(الفصل الخامس)

العائلة سافرت جميعها إلى لندن . الأيام التي أمضيتها بمفردي أحسست فيها بالغربة وإن كنت لاأزال أعيش في بيتي وبلدي .. فالغربة ليست انتقال الإنسان من مدينة إلى مدينة أخرى أو من قارة إلى قارة أخرى .. الغربة في نظري أن يعيش الإنسان وحيداً دون أهل ولا أسرة ولا عائلة . أحسست بالاختناق وأنا أفكر في صديق العمر محمود الذي أضرَبَ عن الزواج وأمضى سنوات عمره وحيداً ، كنت أقول له ذلك بالسر والعلانية ، وأحاول أن أفهمه بأن الإنسان الذي لم يتزوج و لم يكوّن أسرة إنما يسيء إلى نفسه قبل أن يسيء إلى الأخرين . تصور عندما يكبر الإنسان ويمرض ويموت وهو وحده ماذا سيكون الحال ؟ محمود كلمني اليوم بالهاتف وطلب مني أن أتغدى معه ما دامت أسرتي مسافرة ..لبيت الدعوة . لكن الأسى والصمت أصبحا يلازمانني كثيراً بعد أن فكرت في أن أسافر لأرى مايجري في سراييفو .

في فترات الراحة كنت أحاول أن أخطط لفصول الكتاب الذي أعِدّ ، لكن عندما يأتي الليل أجدني قد غيرت وبدلت في كثير

من الفصول .. كنت أقدم في الصباح هذا الفصل ثم يبدو لي تأخيره في المساء وكنت أحس أني ضائع أو مرتبك وليست عندي الطاقة على أن أحدد أسلوب الكتاب ولا حتى عناوينه .. زوجتي وأولادي يتحدثون معي من لندن ، يطالبونني أن أسافر إليهم فأجيبهم : بعد زيارتي لبون . كانت سراييفو وبنات سراييفو وأطفال سراييفو وعجائز سراييفو يعيشون معي طوال الليل والنهار ، أما صورة زينب فقد كانت تكحّل عيني وكأنها تتجسد أمامي . قلت في نفسي ربما تغيرت صورتها ، فالإنسان ـ أي إنسان ـ عندما يكبر تتغير ملامحه ، لكن شعوري الباطن يهتف بي إن وجه زينب لم يتغير وإن كانت السنوات التي أمضتها والعذاب الذي عاشته ربما أضاف بعض التجاعيد إلى وجهها.

ترى لو لم أكن متزوجاً ، هل أتزوج زينب هذه ؟ . سؤال طويل وعريض لكنني لم أجد الإجابة عنه ـــ عندما تتحدث زوجتي معي فان عقلي يرفض التفكير في أن أتزوج زينب ، وعندما يغيب صوت زوجتي تطل صورة زينب في فستان الفرح الأبيض وأنا بجانبها في (الكوشة) والموسيقا تصدح بألحان الزفاف الصاخبة .

لمت نفسي على هذا التفكير ليس فقط بالنسبة لزوجتي وإنما حتى بالنسبة لزينب ، ثم بعدها قلت لنفسي : ولماذا ألوم نفسي على هذا التفكير بالنسبة لزينب فزينب أرملة لم تعد زوجة لأحد ، وإن اقتراني بها قد يكون الأفضل ، فلربما أبعدتها عن جو المأساة التي عاشتها ـ أمضيت أكثر ساعات الليل في كتابة مقالات نارية عن الحرب في البوسنة كنت بحروفي وكلماتي أحاول أن أنتقم من هؤلاء الأجلاف لزينب وأختها و أخواتها المسلمات البوسنيات ـ .

عندما تحادثت مع أصدقائي في بون شعرت بشئ من الراحة ، فهم وإن كانوا يعدون على الأصابع ، لكنهم أصدقاء عشت وعملت معهم سنوات .

وحين حزمت أمرى على السفر إلى بون أصبحت أحس بدقات قلبي تعزف ألحاناً غريبة ، ظننتها بادئ ذى بدء الخوف من هذه الرحلة ، فأنا لم أنس رؤيا أمى . طردت هذه الفكرة من رأسي وقلت : ربما لأنى سأرى زينب . ولكن زينب ليست في سراييفو ولا أدرى أين هي حتى الآن ؟

أخذت الطائرة إلى مطار فرانكفورت ، ومن هناك ركبت القطار لأجد بعض الإخوة في انتظاري في محطة القطار . أحسست

بكثير من الحب والاعتزاز وأنا أرى هؤلاء الصفوة من مواطني بلادي يعملون في صمت من أجل بلادهم ووطنهم . وفي الفندق التقيت بالسفير السعودى السيد عباس غزاوى الذى كان في فترة من الزمن زميلاً عزيزاً على قلبي يوم عمل مديراً عاماً للإذاعة السعودية .

تحدثنا طويلاً عن كل شئ ، وأعلمت صديقي عباس بعزمى على السفر إلى سراييفو ، وتأليف كتاب يكون كتاب الموسم .

ضحك عباس وقال لى : هكذا أنت تظل كعهدنا بك ، تسعى وراء إنجاز فكرتك مهما كانت الصعوبة ، لكن المشكلة الآن في سراييفو ليست كتابة كتاب وإنما الخوف من أحد القناصة وهو يمارس قنص رأسك من بين الناس إذا أحس بما تريد أن تصنع .

أَخَذَنا الكلام وضحكنا معاً .

في الليل زارتني أسرة بوسنية بعد أن سمعت بمقدمى كانت مكونة من رجل ووالدته وأختيه الصغيرتين . أمضينا معاً أربع ساعات في الحديث كنت أدون كل كلمة يقولها الرجل البوسني أو تقولها أمه أو الصغيرتان ، و لم تكن لهما كلمة ربما لأنهما كانتا خائفتين . وكم شعرت بآيات الهلع والخوف على وجهيهما ...

حدثت الأسرة بما كتبته لي زينب فقال لي الرجل : مسكينة ، لكنها ليست الوحيدة . مئات من الحرائر أصابهم ما أصاب زميلتك زينب .

انحدرت دمعة على صفحة وجه الأم المغَضَّن ، ونظرت في وجهي وقالت : لا أريد منك شيئاً إلا أن تعدني بأن آتي لأداء فريضة الحج . وعدتها خيراً وقلت في نفسي بعد أن أخذت عنوانهم بأن أفعل شيئاً لرغبة هذه الأم المسكينة .

لم أعرف بأن لهذه المسكينة بنتين قتلتا مع زوجيهما وأبنائهما في إحدى قرى توزلا . انطلقت دموع الأم التي سألتني إن كان معي نسخة من القرآن لتأخذه معها . أعطيتها نسخة من النسخ التي حملتها معي من مصحف المدينة المنورة .

قبَّلت العجوز المصحف وتركت لبنتيها أيضاً تقبيله بعد أن حرصت الكبرى على أن تحفّظ الصغرى بعض الآيات القرآنية . أما الرجل فقد حاول أن يدعوني للغداء في بيته قائلاً بأنه لن يقدم لي إلا ما تصنعه أمه ، لكني اعتذرت لسفري وقلت لهم : إذا تيسر لي العودة كنت معكم ومع هذه الأم الطيبة .

****

بون مدينة جميلة لكني لم أتذوق جمالها رغم أحاديث الأصدقاء عنها ، فقد كنت مشغول الفكر بالرحلة التي أزمعت عليها ، فالطريق إلى سراييفو هو الذي يطغى على تفكيري .

تحدثت زوجتي معي من لندن تسأل عن الوقت الذي سأكونه معهم وقالت : لا تفكر في ذلك الموضوع الذي تفاهمنا على أن تنساه ، وعدتها خيراً لكني بقيت مشغول الذهن أيضاً بأمر السفر الذي يهم أمي وزوجتي .

أما أختي فقد كانت أكثر سروراً بما اعتزمت عليه ، وكانت تشجعني على ألا أتأخر ، لأنها تعرف رأي أمي وزوجتي في هذا الموضوع .

أختي تقول بأنها لن تسافر إلى جدة إلا بعد عودتي من سراييفو ، فهي متشوقة لأن تعرف ماذا يمكن أن أصنع لهذه المدينة ، ونسيت أنني إنسان ، وأن أي واحد بمفرده لا يمكن أن يصنع شيئاً ذا أهمية ، لكن أختي قالت : عندما يقوم كل واحد بواجبه تجاه أمرٍ ما ، فقد يمكن لهذا الأمر أن يصل إلى قلوب الناس وعقولهم وأفكارهم . ثم عاودت الحديث قائلة : وماذا يملك أصحاب الأقلام إلا أن يقدموا الحقيقة مجردة لمواطنيهم رغم أن المواطن السعودي

يعرف جيداً ما يجري في البوسنة وهـو لا يبخل أن يقـدم كـل مـا في يديه لإخوانه هناك ؟

أمَّنْـتُ علـى قولها وطلبـتُ منهـا ألا تقـول شـيئاً للوالـدة أو لزوجتي على ألا تنسى أن تدعو الله لي في أعقاب كل صلاة .

(الفصل السادس)

ارتفعت درجة حرارتي حتى بلغت /٣٩/ درجة في أعقاب الحفل التاريخي الذي أقيم بمناسبة إنشاء وتشييد أول أكاديمية سعودية أقامها الملك فهد في بون ليدرس فيها الشباب العرب ومن يود الدراسة فيها من أبناء المسلمين .

وعدت إلى الفندق وأسناني تصطك من البرد حتى إذا ما وصلت إلى الغرفة حاولت أن أتناول قرصاً من الأسبرين على أمل أن يخفف عني ما أصابني لكن لم تفلح الأدوية التي في جعبتي في خفض درجة الحرارة ، وعندما أحسست بذلك طلبت من الفندق أن يأتيني بطبيب ليرى ما أنا فيه . جاء الطبيب وفحصني بعناية ثم قال : مجرد برد سيزول إذا ما ارتحتَ بضعة أيام . قلت في نفسي : معنى هذا أنني سأبقى في بون بضعة أيام أخرى من هذا العارض الطارئ .

زوجتي تتصل بي دائماً من لندن ، وأمي من جدة ، وأختي من باريس وكلهم يسألون عني بعد أن عرفوا بارتفاع درجة حرارتي ، ومع هذا كنت أنتظر أن يتصل بي أحد الإخوة من المسئولين عن

الإغاثة ، فقد رتبت رحلتي معهم على أساس (أن أهل مكة أدرى بشعابها) ، لكن أحداً منهم لم يتصل .

خفّت درجة الحرارة وأصبحت أستطيع أن أخرج للتنزه بعض الوقت مع بعض الأصدقاء . شعرت بأنني كنت محل الحفاوة من أولئك الإخوة الذين التفوا حولي في ساعات المرض ، وقلت في نفسي : هكذا نحن حتى الذين لا يعرفونك تراهم على رأس من يقدمون إليك الخدمة في الخارج .

أختي في اتصالها الأخير قالت بأنها تسلمت رسالة جديدة من زينب ، فقد بعثت بها زينب من أحد المستشفيات العلاجية . في لندن إلى عنوانها في جدة ومن جدة تسلمتها عبر الفاكس بعد أن طلبت منهم في البيت فتحها وإرسالها وقالت بأنها رغبت من زوجتي أن تزورها ، وأنها هي الأخرى ستقوم بزيارتها بخاصة ، ورجتني إذا ما انتهت زيارتي لسراييفو أن أعرج على لندن ، فهي تعرف بأن الأسرة في هذا الوقت ستغادر لندن إلى باريس فلربما رأيتها وعشت قصتها كاملة ، أما إذا لم أستطع فسنراها في جدة لأنها - أي أختي - ستدعوها لأداء العمرة .

بعد ساعة من الزمن جاءني صوت أختي هذه المرة خانقاً ومتأثراً وهي تقول : لقد تحدثت إلى زينب تلفونياً لكنها لم تستطع مواصلة الحديث ، بل مضت تجهش في البكاء طوال فترة الحديث .. أختي منزعجة لأن زوجتي لم تقم بزيارة زينب ، ولا تدري ما السبب ، وتقول : هكذا نحن النساء نغار من ماضي أزواجنا حتى وإن كان ذلك الماضي ناصع البياض .

هونت على أختي الأمر وقلت لها : ما دمت ستزورينها أنت فهذا يكفي وإذا كانت في حاجة إلى المال فلا بأس أن تعطيها نيابة عني ما تريد ، على أن نتحاسب عند عودتي إلى جدة .

صدقوني عندما أقول لكم بأنني كنت في تلك اللحظة . بين الفرح والحزن. الفرح لأن زينب لا تزال على قيد الحياة ، وأن الله قد فك أسرها من بين أيدي العتاة غلاظ القلب ، والحزن لأن ما مرَّ على هذه المرأة من مآسٍ لم يمرَّ بأي إنسان آخر . وبدأت أفكر كثيراً في أمر هذه المسكينة : ترى كيف هي ، وكيف استطاعت أن تأتي إلى لندن ، ومن يتعرف على المستشفى الذي تستشفي فيه ؟ .

أسئلة كثيرة لكنها بلا جواب وإن كانت تنتظر الجواب ، ومن يدري هل يقدَّر لي أن أعرف الجواب من زينب عندما أراها أو

أن قناصاً ماهراً سوف يصطادني وأنا أسير في شوارع سراييفو ؟ فكثير من الناس قضوا نحبهم على أيدي هؤلاء القناصة .

عندما يصاب الإنسان باليأس يبدأ الخوف يتسلل إلى قلبه ، ومن قلبه إلى جميع جوارحه ليبدو أشبه بإنسانٍ فقد قدرته على التماسك . كنت أنا هذا الرجل ربما لأنني أحسست بشيء من الخوف يتسلل إلى قلبي بعد أن تذكرت أولئك الذين يتخفون وراء الأشجار ليصطادوا رؤوس الرجال والنساء معاً . ولكن هل يمكن أن يقضي الإنسان نحبه دون أن يحين أجَلُه ذلك ما كنت أفكر فيه ، وأقول في نفسي : لن أموت قبل أن ينتهي العمر وأنا آمل أن يكون هناك في العمر بقية أستطيع أن أرى فيها زينب فتاة الجامعة التي أحببتها في صمت ، والتي أصبحت زوجتي أشد غيرة منها بعد أن عرفت الحكاية حتى إنها لم ترض أن تزورها في المستشفى عندما طلبت أختي منها ذلك .. في تلك اللحظة قررت ألا أسافر إلى سراييفو إلا بعد أن أرى زينب .

عندما تحدثت معي أختيّ بالهاتف أخبرتها بما عزمت عليه ، فقالت في حزم: لا ، دَعْ أمر زينب لي ، واذهب محفوفاً بعناية الله .

سألتها : لماذا هذا الإصرار ؟ قالت : أنت أعرف بزوجتك مني ، فهي رغم كل ما تتميز به من رصانة وهدوء وسعة خلق إلا أنها لا تنسى كل هذا الأمر عندما يأتي الحديث عن زينب ، والذنب في الحقيقة ذنبي ، فأنا التي حدثتها بحبك لهذه الغريبة ، هذا الحب الصامت الذي لم تعلن به لأحد سواها وسواي . وضَحِكَتْ ، لكني لم أضحك أنا ، بل أخذت أفكر في أمر هذه الزوجة التي أحب والتي استطاعت طَوال أكثر من عشرين عاماً أن تحافظ عليّ ، تسامحني على نزواتي وتبحث لي عن مخرج عندما أخطئ ، وعندما لا أخطئ أراها تحاسبني على أنني لم أخطئ في حقها فعلاً .

في تلك اللحظة أحسست أن الوقت قد سرقني في محادثة نفسي لنفسي وقلت : لندع كل هذا للغد ، فلربما جاء الغد بما نشتهي ، أما ما لا نشتهي فذاك هو الذي لا نريد أن نراه .

أمضيت بعض الوقت في ترتيب ملابسي داخل الحافظة الجلدية . وفي الصباح أخذت طريقي إلى محطة القطار في طريقي إلى مطار فرانكفورت لآخذ الطائرة في رحلتي التي عشت أفكر فيها كثيراً وكثيراً .

في القطار كان مقعدي تُجاهَ رجل وامرأة ، نظرت إليهما ، وشعرت كأن الاثنين قد تزوجا قُبَيْل أيام .

كانت المرأة أكثر تولهاً في حب زوجها الذي فاتحتُه في الأمر ، وعرفت بأنه فعلاً قد تزوج قبل أسبوع واحد من الزمن ، وأنهما في طريقهما إلى فرانكفورت ومنها إلى إسبانيا حيث يعيش الرجل رغم أنه وزوجته من الجنسية الألمانية .

أمضيت الوقت مع الزوجين في حديث ناعم ، حاولت من خلاله أن أفهم رأيهما في قضية البوسنة ، لكن الرجل والمرأة لم يكونا معي في هذا الأمر ، وكأنهما يسمعان بالمشكلة لأول مرة .

قلت في نفسي : هكذا هو العالم الأول كل واحد مشغول بحياته وظروفه وأوضاعه ومستقبله أيضاً ، أو كأنّ كل فرد فيه يقول : نفسي .. نفسي .. ومن بعدي فليكن الطوفان .

(الفصل السابع)

في مطار فرانكفورت أمضيت أكثر من أربعة ساعات أنتظر قيام الطائرة التي ستقلني إلى مطار زغرب ، كنت أحلم بالوصول إلى سراييفو عن طريق كرواتيا بحثت عن بعض الكتب التي يمكن أن أشتريها لتؤنس وحدتي في هذه الرحلة التي لا أدري ماذا ستكون نتيجتها وخاتمتها ؟

رؤيا أمي أخذت تتراءى أمام عيني ، كذلك كلام زوجتي وإصرارها على ألا أذهب إلى سراييفو ، يرنّ في أذني وحديث أختي وحرصها أن أؤدي واجبي تجاه إخواني في الدين ....كل هذه الأفكار كانت تملأعيني وخواطري لكني كنت أجد رؤيا أمي مسيطرة على تفكيري ، فأنا أعرف مرائيها التي كانت تحدثنا عنها .

في مطار فرانكفورت التقيت بأحد الإخوة العرب ، تعرفت عليه وأنا أقف إلى جانبه على مقربة من المقهى الصغير ، أحسست كأنني أعرفه ، وحين عرف بأنني سعودي دعاني إلى فنجان قهوة . جلسنا سوياً وبدأنا نتحدث عن مشكلة البوسنة . لا شيء في ذهني غير هذه المشكلة ، قال لي صديقي : ما بالك وكأنك تحمل السُّلّم

بالعرض ، هل أنت صحفي ؟ ولما أجبته بنعم قال : لهذا السبب تحشرون أنفسكم ، أنتم معشر الصحفيين ، وأنوفكم في أشياء تنقلونها إلينا لتنغصوا بها حياتنا . وضحك الصديق العربي وكأنه قال نكتة تحتاج إلى أن أضحك معه بها ولكني لم أضحك ، وأمضيت بعض الوقت معه حتى أزف موعد سفره إلى باريس فمضى عني وهو يقول : ربما أراك هناك في الشانزلزيه . قلت له : ولماذا لا تقول سراييفو ؟ قال : لا ، فال الله ولا فالك ، فأنا لا أحب أن أحشر أنفي في أشياء لا أعرفها ، لأنني فنان .قلت : يمكن لك أن تجسد ما ترى في لوحة . قال : حتى هذه لن أصنعها ، سأتركها لغيري ، فأنا أحب الحياة ، ثم ما الذي يجبرني على أن أذهب إلى هناك ما دمت لا أعمل جندياً أو ضابطاً مطالباً بأن أكون هناك ؟ وارتفع صوت ضحكاته وكأنها تصم أذني ، فهل يعقل أن يوجد في عالمنا العربي من هو على شاكلة هذا الذي عرضه لأول مرة ؟

عندما حلقت بي الطائرة في طريقي إلى مطار زغرب كنت أحلم بأشياء كثيرة ، رغم أنني لم أنم ، بعد ، لكن كثيراً ما نحلم نحن الذين نجري وراء الكلمة والحرف ، بما نحققه من أجل هذا القارىء

الذي يلاحقنا دائماً أو يطلب منا أن نعطيه ما يجعله قادراً على فهم ما يجري في عالمه الذي يعيش فيه .

الطائرة تترجح يميناً ويساراً وأنا أغرق في خوف دون شك ، ولكن في هدوء . ستقولون كيف يكون هذا ؟ فأقول : فسروه كما ترون ، لأن كل واحد منا يعيش الهلع في هدوء بأسلوبه . أما أنا فلم أكن تلك اللحظة قادراً على تفسير خوفي .

السيدة التي كانت بجانبي على كرسي الطائرة امرأة نَصَف ، أي إنها في النصف الثاني من عمرها . على وجهها تعلو ابتسامة تدل على أنها في تلك اللحظة أكثر وثوقاً بأمر الطائرة مني ، قلت لها بعد أن نظرتُ إلى وجهها : هل أنتِ من زغرب ؟ . لم أكن أدري من أين هي ؟ فالأوربيون كالصينيين ، كل واحد يُشبه الآخر قالت : لا . وإنما أنا من البرازيل .

سألتها : وهل تذهبين إلى زغرب في سياحة ؟ زادت ابتسامتها على شفتيها اتساعاً وقالت : لا ، ولكني صحفية ، فأنا وزميلتي نتناوب تغطية الأحداث من هناك . أردفتُ قائلاً : وأين هي زميلتك ؟ قالت : قتلتها شظية من قنبلة وهي تؤدي واجبها ، فأصبح عبء العمل كله على رأسي .

سألتها عن عمر صديقتها القتيلة قالت : أصغر مـني بعشـرين عاماً .قلت : إذن هي في الثامنة والعشرين ضحكت وقـالت : مجاملـة لطيفة ، ولكن من أين أنت؟

قلت لها كل شيء، وعرّفتها بأنني صحفي وذكرت لهـا رؤيـا أمـي وزوجـتي وكـلام أخـتي وكـأنني أعرفهـا منـذ سـنوات طويلـة . يقولون : إن الغربة أحياناً تصنـع الصداقـة ، وأنـا بطبعـي أقـدر علـى مصادقة الآخرين ..

نظرت إلى وجهي بعد كل ذلك الحديث .

وقالت : أشعر بأنك خائف .

قلت :تريدين الحق ؟ نعم .

قالت : ومم تخاف ؟ من الموت مثلاً .

قلت : لا ، فالموت حق ، ولكني أخاف مـن أشـياء كثـيرة ، أخاف على أولئـك اللواتـي قتلهـن واغتصبهـن الصـرب ، أخـاف أن أسجن أو أحبس أو أن يُمَثّل بي ، أخاف .. وأخاف .....

وعددت لها مصادر الخوف في نفسي . ضحكـت كريسـتينا – كـان هذا هو اسمها – وقالت : لو قلت لك ما حدث لي ولأسـرتي لضـاع منك الخوف ، فأنا زوجـة لصحفـي عمـل طويـلاً في تغطيـة أحـداث

الحروب ، ومات في حرب الفوكلاند ، فأخذت ابنتي مكانه أما ولدي فهو الآخر صحفي ، لكنه من نوع آخر ، فقد آثر أن يكون في الإخراج الصحفي والرسم لأنه مبدع ، وها أنت ذا تراني هنا أواصل العمل ولا أخاف لأنني أعرف بأن رسالتنا أن يعرف الناس كل ما يجري في الحروب والأحداث . إذا قلت لك بأنني قد فكرت فترة من الوقت أن أترك هذه الوظيفة بعد وفاة زوجي فإني أقول لك الحقيقة ، لكنني وبعد أن غيّرت ابنتي وظيفتها من محررة للشؤون الفنية لتأخذ مكان أبيها غيّرت رأيي

الخوف يولد الخوف يا صديقي ونحن في عملنا هذا ندع الخوف جانباً ونبحث عن المجهول لنسجله،ثم بعد ذلك لا ندري متى سنكون نحن أنفسنا عنواناً مثيراً في الصفحة الأولى،وهذا لايتأتّى إذا لم نصل أو نخرج أو يُلق القبض علينا أو نحاكم.

هذه هي رسالة الصحفي ، البحث عن الحقيقة لا تعريتها ، نشرها كما هي ، ولندع للآخرين من زملائنا كتابة ما بين السطور .

الصحافة قدوة وإحساس وفن وإيمان بما تصنع وصدق في تقديمه ، إذا ضاعت واحدة من هذه الأشياء لم تعد صحافة.

فنحن نمتلك من مقومات الأخلاق ما لا يمتلكه بعضهم ، ومع هذا فالذين يذبحون على خشبة المسرح هم نحن لا هؤلاء الذين يصنعون المشاكل والحروب الجانبية ويقتلون الزهور .صدقني لم تعد المرأة في عالمنا سوى زهرة برية تبحث عن الماء على ضفاف الهضاب التي تعيش فيها ، عالمنا قاتل ، وأول من يقتل هو المرأة .
بعضهم يقتلها بحجر وآخر بخنجر ، وثالث بقنبلة ، ورابع بمعسول الكلام .

قلت لها : أنت أكثر من صحفية أنت فيلسوفة .نظرت في وجهي وقالت : فلسفتي أجدها من الواقع ، والواقع كثيراً ما يكون أغرب من الخيال ، ألست معي في هذه المقولة ؟.

أمّنت على كلامها ، واستمعت إلى صوت المضيفة تطالبنا أن نشد الأحزمة فنحن في طريقنا للهبوط في مطار زغرب .

(الفصل الثامن)

حين هبطت الطائرة في مطار زغرب أحسست بأنني في حالة نفسية غير مستقرة ، لا لسبب إلا لأنني تذكرت بأن فكرة السفر إلى سراييفو عن طريق زغرب كانت تمثل لديّ قناعة وطنية ، ومفهوماً صحفياً ، أتطلع إلى أن أنقل كل تلك الصور الإنسانية من خلال لقاءاتي بالمسئولين وبعض من أبناء الشعب البوسني المسلم الموجودين في كرواتيا .

كنت أظن – ومن خلال التنسيق الذي تم بيني وبين هيئة الإغاثة الذين باركوا خطواتي ، وقرروا مساعدتي واستضافتي في كرواتيا بين زغرب وسراييفو – أن من السهولة الحصول على تأشيرة دخول إلى كرواتيا ما داموا سيتصلون ويحصلون لي على تأشيرة وبخاصة وأنهم قد وعدوني أن أجد هناك من يستقبلني في المطار ويُسَهِّل تنقلاتي في كرواتيا . لم أدع أي شيء للظروف ، بل زودتُ هيئة الإغاثة بموعد وصولي إلى مطار زغرب كنت أظن بأن كل شيء سيكون متاحاً لي فأنا صحفي وصديق ، وأحمل كثيراً من الحب للكرواتيين بعد وقوفهم مع المسلمين في البوسنة. عندما وصلت إلى

مطار زغرب قالت لي شابة ذات وجه طفولي يميل إلى الدمامة بأن هناك مكتباً في المطار يمنح التأشيرات للراغبين في الدخول . توجهت إلى المكتب بعد أن سبقني إليه أربعة من جنسيات أوربية مختلفة حصلوا في لحظات على التأشيرات ، أما أنا فقد أوقفني المسئول عن المكتب ، ووجه لي بعض الأسئلة كنت أظنها عادية لأنها كانت تتعلق بأغراض زيارتي ، وعما أحمل من النقود ، قلت له كل شيء بصراحة ، وأشعرته بأن معي من المال ما يكفيني بالإضافة إلى البطاقات الائتمانية .

أعاد علي السؤال مرة أخرى : هل تعرف أحداً هنا ؟

ذكرت له أسماء من أعرف من المسئولين في الهيئة ، وأنه لا بد أن هناك شخصاً ما في انتظاري في خارج المطار . بعث معي أحد موظفيه . وهناك وجدت موظفاً عربياً من هيئة الإغاثة ومعه موظف آخر كرواتي الجنسية . كانت المشكلة أن الموظف العربي لا يعرف الإنجليزية ولا يتحدث الكرواتية ، أما الموظف الذي كان معه فلا يتحدث الإنجليزية كما أنه كان خائفاً من أن يقوم بدور المترجم بين مسئول الجوازات وموظف الهيئة السعودية ، هذا الخوف أوجد شيئاً من الشكوك حولي وحول المهمة التي أنا قادم إليها .

ولكم حاولت أن أفهم المسئولين في المكتب مهمتي ، لكنني وبعد أن توقفت حركة الطائرات القادمة والمسافرة أصبح وضعي محرجاً .

في تمام الساعة السابعة مساءً أقفل المطار ، ولم يبق فيه سواي وجنود ثلاثة كانوا مدججين بالسلاح لحراستي . قادوني إلى صالة الترانزيت في خشونة لم أعهدها حاولت التفاهم معهم لكنهم لم يكونوا يعرفون سوى الكرواتية .

صالة الترانزيت صالة كبيرة لا يوجد فيها أي كرسي ، حاولت أن أتجه إلى صالة القادمين المجاورة لأستريح على أحد الكراسي ، لكن الجنود تبعوني وأمروني بالعودة . وحين رفضت لوى أحدهم ذراعي وأمسك الآخر بذراعي الأخرى ولم أحس إلا ولكمة قوية على وجهي .ترى لماذا كل هذه الشراسة؟ أحسست بعد أن أفقت من هول وألم الضربة أنني أصبحت كريشة في مهب الريح،وقلت في نفسي : ربما كان هؤلاء الجنود من الصرب وليسوا من الكروات ، ولهذا جاؤوا للانتقام من شخصي الضعيف .

سألتهم عن السبب قلت لهم : لماذا تصنعون معي هكذا ؟ وجوه كريهة جامدة ليس فيها شيء من الإنسانية ..وكأنها صلبت على خشبة طويلة .

اقتادوني إلى صالة الترانزيت مرة أخرى ووضعوني في ركن قَصِيٍّ في الصالة وحرموا عليّ التحرك حتى إلى دورة المياه إلا بأمر منهم . طلبت منهم أن أشرب ماءً أو شراباً أو طعاماً . لم يقولوا شيئاً وإنما أشاروا فقط بأن لا شيء هنا يمكن أن أشتريه ..المساحة التي سمحوا لي أن أتحرك فيها هي (٢×٢)متراً وهم حولي كالزبانية يحملقون في وجهي ينظرون إلي نظرات غاضبة .

أحسست أن حركة الزمن قد توقفت وأن عقارب الساعة هي الأخرى توقفت حتى لاتزيد قلقي أو تكثر من انفعالاتي .

حاولت أن أنام فوضعت رأسي على حقيبة يدي ، وتمددت على الأرض . أحسست بالبرودة تتسلل إلى كل بدني وآلمتني ضلوعي ، فقمت واتجهت إلى أحد الكراسي وجلست عليه .. وتبلد إحساسي ، ولم أعد أميز شيئاً وتساوت الأمور في عقلي ، واختلط كل شيء أمامي حتى إنني لم أشعر بوجودي . ولما أطفئت الأنوار

شعرت بشيء من الرهبة لولا بصيص من الضوء يأتي عبر الإضاءة الخافتة التي كانت تنبعث من الإعلانات المعلقة على الجدران .

أمضيت الليل بطوله ساهراً ، وعندما بزغ نور الفجر أحسست بأن شيئاً من مخاوفي قد زال ، وأحسست بقليل من الطمأنينة وتذكرت أهلي وبيتي وأولادي ورؤيا أمي ، فقد بدت تفاصيل الرؤيا وكأنها تراها أمي . فهذا الذي صنع معي والذي نسيت أن أربطه بالرؤيا لانشغال فكري وضيق نَفَسي ، وحين صفا تفكيري أدركت بأن الرؤيا التي رأتها أمي أصبحت حقيقة ، وبدا كل شيء أمامي واضحاً دون أي تفسير . ترى لماذا أقدمت على هذه المغامرة ، ولماذا لم أُلَبِّ رغبة أمي فقد طلبت ذلك مني ، لكنني رفضت وإن لم أشعرها برفضي .

وفي الساعة السابعة فتحت المتاجر ، ودبّت الحركة في المطار ، لكن هذا الاستبشار فقدته بعد أن أشعرني رجال الدورية بألا أتحرك إلا بأمرهم .

تعرفون كيف يعامل رجال الشرطة المجرم ؟ كنت أتمنى في تلك الساعة أن أعامل بمثل هذه المعاملة ، لكنني لم أنلها لأنني على ما يبدو لا أستحقها ، أو ربما لأنني جئت إلى هذا المطار دون تأشيرة ،

أو ربما ظنوا أنني سأحدث ما أحدث في حياة هؤلاء القوم فرأوا أن يصنعوا بي ، وبدأت الهواجس تعاود طريقها في أعماق ذاكرتي ، وأخذت الصور الوحشية التي يستخدمها الصرب مع الرجال والنساء المسلمات تتراءى أمام عيني . وفجأة أخذت أقرأ كتاب زينب حرفاً حرفاً رغم أنه لم يكن معي ، وأخذت أنتحب . ولكن في صمت فقد عزّ عليَّ أن أبكي أمام هؤلاء الذين لاتعرف قلوبهم الرحمة .

كنت أنظر إلى الإعلانات التي أخذت تبدو من بعيد فلا أراها إعلانات وإنما هي جميعها جزء من رسالة زينب التي أخذت تظهر في حروف كبيرة خالطت نفسي ، فشغلتني بعض الوقت أن أفكر في نفسي ، وارتفعت يدي إلى السماء أدعو وأدعو وأدعو عسى أن أنتهي من هذا العناء والعذاب الذي التقيته هنا في مطار زغرب .

(الفصل التاسع)

لم أكن أظن أنني قادر على الحديث عن فترات الضنى والعذاب التي عشتها في مطار زغرب . هذا المطار الذي أحسست بأنه سجن كبير لشخص واحد هو أنا دونما سبب . قد تكون الغربة مضنية ، لكن ضناها أكبر وأشد عندما يواكبها شيء من الأسى والتفجع . لا يكفي أن تتفجع على كل أولئك الذين ماتوا وقضوا نحبهم لأن عذابهم بالموت قد انتهى ، لكنني أتفجع على زينب التي تستشفي هي ومثيلاتها في مستشفيات العالم ، وأحس بالألم والحزن والغضب لما أنا فيه في جلستي تلك على كرسي من كراسي صالة الترانزيت . التقيت بأحد الإخوة حاولت أن أناديه بصوت خافت خوفاً من الزبانية ، لكنه لم يسمع ، رفعت صوتي فالتفَتَ، أشرت إليه أن يأتي . جاء الرجل وقلت له في كلمات متقطعة ما أنا فيه وطلبت منه أن يبلغ أسرتي لتتصرف . لكن الرجل قال بأنه سيبلغ سفيرنا في فيينا فهو مسافرإليها . وقد فعل ، لأن توالي الأحداث هو الذي جعلني أقول هذا في تلك اللحظة . قدمت إحداهن لترى هذا الذي يجلس على الكرسي ببشاعة مظهره . لم أكن أظن أنه سيأتي يوم ما

أقابل فيه الناس بملابسي التي أصبحت متسخة نتيجة نومي على الأرض لدقائق لأنني لم أكن أستطيع النوم . قالت لي الفتاة بإنجليزية ذات لكنة أوربية : ماذا حدث ؟ قلت لها كل شيء في كلمات سريعة. لكزني أحدهم ببندقية في خاصرتي . رفعت الفتاة صوتها عليه ، وتحدثت معه حديثاً بلغته . نظرتُ إلى وجهه ، وشعرتُ وكأنه يريد أن يعتذر عن اللكزة .

أعطيت الفتاة رقم تليفون ابني ، وقلت لها بأن تخبره بكل ما حدث لي . قالت : سأفعل . ونظرت إلى الرجال تؤنبهم على ما فعلوا ، ثم ودعتني وذهبت .

ارتحت بعض الشيء وقلت : لا بد أن الرجل سيفي بما وعد ، وكذلك هذه الفتاة وإن كانت هي الأخرى كرواتية .

أحسست بعد ذلك بأن في إمكاني أن أتحرك في مساحة أكبر ، لكن إقدامي على هذه الحركة لم يلاق قبولاً من سَجّاني .. جلست على الكرسي وأنا أفكر ولم يمتدَّ تفكيري إلى شيء ، وشعرت بشيء من التبلد قد أصابني ، فلم أعد ذلك الإنسان الذي عرفت .

وهكذا يفعل الظلم في نفوس الناس .. يُضيع حقوقهم ، ويُضيع مع إضاعة هذه الحقوق توازنهم أيضاً .

كنت أنا ذلك الرجل ، الذي فقد توازنه وأصبح بدون ظل .. لأن بعض الذين لا يعون الحياة أصبحوا يسيطرون على مقادير الناس في بلدانهم .

في تلك اللحظة التقيت بسيدة ، كل ملامحها تدل على أنها من بلدي لكني عندما تحدثت معها عرفت أنها أردنية .. قلت لها عما أعاني في عبارات قصيرة . أحسست أن السيدة قد فهمت كل ما أقول ، وطلبت منها أن تتصل بالجريدة التي أعمل بها ..وبدأت أفكر هل سأقضي ليلة أخرى هنا أنام فيها على الأرض كما فعلت بالأمس ؟ أحسست بأنني يجب أن أستعد لهذه المفاجأة حتى لا يداهمني الليل وأنا لاأدري ما أفعل ، وبدأت أفتح حقيبتي لأتناول منها ما يمكن أن أستخدمه في محنتي تلك ، وبدأت أغيّر ملابسي في العراء ، في تلك اللحظة ، انشغل الجنود بمحفظتي ، حملوها معهم للكشف عليها فلربما وجدوا فيها شيئاً .. قلت : مساكين هؤلاء الجهلة ، كان من المفروض أن يصنعوا ذلك منذ الأمس لا اليوم لكني حمدت الله لأنهم أتاحوا لي الفرصة أن أمضي إلى المقصف لأتناول كأساً من الشاي بعد أن حرمت من هذا الشاي ومن الماء النظيف والطعام أربعاً وعشرين ساعة لاأدري كيف مرت لكنها تجربة قد

تمنحني القوة على غيرها . وحين وصلت إلى هذا الحد من التفكير ابتسمت وقلت في نفسي : شر المصائب هي المصيبة التي تضحك صاحبها وليس أولئك الذين يتابعونها ، وإن كنت أظن بأن هؤلاء المجانين قد ضحكوا عليّ كثيراً طوال ساعات الأزمة .

لقد فقدت الأمل في النجاة ، وفي تلك اللحظة جاء الجنود بمحفظتي مقفولة لم أعرالجنود شيئاًمن الاهتمام ، لكن الذي أعرته بعضاً من اهتمامي وجود جنرال يحمل الكثير من النياشين والأوسمة معهم . قلت لنفسي : جاءت المصيبة ، فلربما عرف الناس هناك أنني مجرم خطير ، ولهذا أتوا بهذا الجنرال ليحملني معه إلى السجن . والسجن في أي مكان يخيف لكن سجن هؤلاء أكثر تجريداً للإنسان من إنسانيته التي يفقدها في بعض الأحيان نتيجة سوء فهم أو عدم معرفة .

كانت المفاجأة أن الضابط الكبير قال وفي وجهه علامات البغضاء والاشمئزاز : آمل ألا نكون قد سبّبنا لك أي إزعاج . نظرت إليه ببلاهة ، ولم يكمل حديثه .فهذه الكلمة ربما لا تعني ما فهمت .ثم قال بلغته وفي كلماته شيء من العنجهية : تريد أن تغادر المطار الآن ؟.قلت : كيف ، وأنا أرى الطائرتين اللتين كانتا على

مدرج المطار تستعدان للمغادرة .قال : سنوقف إحداها : قلت بالعربية: أرجوك .لكنه لم يفهم ما أعني ، فأفهمته المعنى بالإنجليزية ، وتابعت قولي بأنني أريد أن أغادر إلى باريس قال وبكل حزم بل لفرانكفورت . قلت بعد أن نظرت إلى عينيه رأيت أن الكلام مع أناس مثله لا فائدة له : لا مانع .. وحاولت أن أتحدث معه قليلاً ، لكن الغضب برقع وجهه وقال لي : لا أريد أن أسمع منك كلاماً فلقد اضطررتني أن أقطع إجازتي وآتي إلى هنا لترحيلك . قلت لنفسي دون أن أرفع صوتي : ربما كان ذلك غباءً من رجالك ومعاونيك ، و لم أجرؤ أن أواصل ، بل بقيت في مكاني أكثر من خمس عشرة دقيقة ثم اتجهت إلى بوابة الخروج لأعاود الدخول عبر بوابة ثانية حيث تقف طائرة اللوفت هانزا .

وهناك طلبوا مني التوقيع على إقرار لا أدري كنهه . كنت مستعداً أن أوقع على أية ورقة حتى ولو كانت اعترافاً مني بالسرقة لأنني في تلك اللحظة كنت أنتظر الفرار بجلدي .

ألقى أحد العسكر محفظتي إلى منطقة اللوفت هانزا وأخذت طريقي إلى الحافلة .. وأنا أتلفت يميناً ويساراً خوفاً من أن يغيروا رأيهم ويعيدوني حيث كنت . وفي الطائرة حمدت ربي على انتهاء

هذه التمثيلية القاتلة ، وقررت بيني وبين نفسي ألا أصدق أي وعد يأتيني من أي إنسان على أنه سيهيء لي أسلوب الاستقبال عندما أصل ، وفي مقدمة كل هؤلاء رجال الإغاثة التي كنت أنتظر أن يحاولوا إغاثتي من الشر الذي لازمني أكثر من أربع وعشرين ساعة :

في الطائرة كانت هناك فتاة يعيش أهلها في فرانكفورت ، أبوها بوسني مسلم وأمها كرواتية . قالت لي أشياء مفجعة عما سمعت ، وقالت الكثير الكثير لكنني لم أسمع شيئاً من كل هذا الذي قالته لأنني كنت لاأزال في حالة انعدام الوزن وهذا أقسى ما يصيب الرجال .

وما أكثر الرجال والنساء الذين عاشوا انعدام الوزن في كرواتيا والبوسنة من الكرواتيين والصرب أيضاً ..

(الفصل العاشر)

كثيراً ما نتساءل بيننا وبين أنفسنا عن الرابط الذي يجمع بين الناس : أهو اللغة : لا أعتقد ، لأن لكل إنسان في أي بلد لغته التي يتخاطب بها ..أم هو اللون: لا أعتقد كذلك لأن للناس ألوانهم ومشاربهم تختلف باختلاف المدن والموانيء والقارات ومفاهيم الأخلاق إذ قد تختلف النظرة بين مفاهيم الإنسان في آسيا ومفاهيم الإنسان في أوربا . وعندما ننظر إلى هذا الموضوع الرابط بين الإنسان والإنسان في أي مكان : والذي يجمعنا هو أننا نعيش على هذه الأرض ، نأ خذ من خيراتها بمقدار ما نستطيع ، ونحمل أنفسنا ما لا طاقة لنا به . وهذا المخلوق الآدمي البشري يظن نفسه أقوى من الحصان وأشجع من الأسد ، يقتله الخوف ويطحنه الفزع ، عندما يلوح له خطر داهم ، أو مصيبة تنتهي إلى الفتك به . وتلك هي الحقيقة التي كنت أرددها بأن الإنسان أي إنسان في أي مكان - هو هو ، مَثَلُه مَثَلُ غيره حين يتسلل إلى قلبه الهلع أو يواجهه الخطر دفعة واحدة ، لهذا فقدت شجاعتي وضاعت هيبتي ، ونسيت أنني إنسان قويّ كالحصان ، هصور كالأسد وأنا أواجه الخطر في مطار زغرب .

وعندما نحس بالأمان نشعر بالجوع ، وننشد من وراء هذا الإحساس أن تمنح أنفسنا مساحة من المرح من خلال تلبية الرغبات التي نشعر بها

في الطائرة التي أقلتني إلى مطار فرانكفورت أحسست بالجوع والامتلاء في وقت واحد ، وقد يُسْتَغْرَبُ كيف يحس المرء بالجوع والشبع في وقت واحد . لن أتفلسف في الموضوع وإنما أقول : عندما نكون أحراراً نشعر بالامتلاء كما يمكن أن نشعر بالجوع : وجوعنا هذا ينحصر في شيء واحد : هو أننا قادرون على أن نأكل وقادرون على أن نشرب وقادرون على أن نمتنع عن الأكل وقادرون على أن نحب وقادرون على أن نكره .

رغم كل الذي صادفته في مطار زغرب كنت أتمنى لو قدر لي أن أصل إلى سراييفو ، ولكني مع هذا منعت ، وها أنا ذا مرة أخرى في فرانكفورت .

عندما حطت الطائرة وأخذت جواز سفري لأقدمه لرجل الجوازات عاودني الخوف وأحسست بقشعريرة تسري في جسدي . و لم يطمئن قلبي إلا بعد أن ناولني الرجل جواز السفر وطلب مني أن أدخل فرانكفورت .

مضيت لا ألوي على شيء ، أخذت حقيبة ملابسي من قسم الجمارك ومضيت أجرجرها وأنا أصفر لحناً فولكلورياً . كنت أحب أن أسمعه : وزوجتي تغنيه بينها وبين نفسها . ترى لماذا أردد هذا اللحن بالذات ؟ ألأني افتقدت زوجتي؟ وما هو الأمر بالنسبة للأولاد ، هل نسيتهم ؟ وتذكرت بأن الزوجة هي رأس مال الزوج يقضي معها الحياة سالماً آمناً إذا كانت من نوع زوجتي تلك السيدة الطيبة الفاضلة .

ركبت سيارة أجرة التاكسي ومضيت إلى الفندق : وحين قدمت جواز سفري إلى رجل الاستقبال .نظرإلى وجهي بأدب وقال : هل يسمح سيدي بأن يعطيني بطاقة الائتمان التي يحملها .. أعطيته واحدة من هذه البطاقات التي أحملها وأخذت أفكر ، فلربما كانت ملابسي هي السبب في أن ينظر لي الرجل وكأنني لا أملك أن أسكن في فندق محترم كهذا .. قلت في نفسي : للرجل حق في توجسه فأنا بشكلي الذي دخلت به إلى الفندق ما يستدعي لأن يكون حريصاً معي ومع أمثالي .

فالعالم الحر يلفظ بلا شك أي إنسان لا يملك قيمة ما يحتاجه .. في الغرفة نفحت الخادم مبلغاً من المال لم يكن ينتظره ،

انحنى الرجل انحناءة كبيرة تدل على أن المبلغ الذي دفعته كان كبيراً ومضى يريني كيف أستفيد من كل ما هو موجود في الغرفة حتى إذا ما انتهى طلبت منه أن يفتح صنبور المياه الساخنة والباردة في حوض الحمام حتى إذا ما انتهى ودعني بأدب . لم أنتظر طويلاً بل أخذت أتحدث إلى غرفة الخدمة لأطلب عشاء يكفي خمسة أشخاص على الأقل ، ومضيت إلى الحمام لأنضو عن نفسي غبار الرعب حتى إذا ما انتهيت وارتديت ملابسي طُرق جرس الباب في هدوء حتى إذا ما فتحته دخل الخادم ومعه جميع ما طلبت من أنواع الأطعمة .

وقعت على ورقة الطلب ونفحته بعض المال وقلت لنفسي : الأفضل أن أرتاح قليلاً قبل أن أبدأ الأكل ، وهكذا فعلت حتى إذا ما ألقيت بجسدي على السرير ، أخلدت إلى النوم دونما حاجة إلى مقدمات كما كنت أفعل . أحسست بالكثير والكثير من الراحة في نومي لأن الحلم الذي راودني آنذاك كان أجمل مما أتصور ، لقد رأيت نفسي وقد وصلت إلى سراييفو لأرى السلام وقد غطى جميع أرجائها .وبعد أن وافق الجميع على شروط السلام البوسنية أخذت صور هذا السلام تبدو بأشكالها الملونة وتطل في ترتيب طويل . كان حلماً من أجمل الأحلام لأني رأيت زينب وقد أصبحت وزيرة ترعى

الفنون والتقافة في بلادهـا ، وتعمـد إلى تقديـم اللوحـات الـتي تؤكـد أحقية المواطن المسلم بأن يمارس عقيدته على أرضه وبلده .

رأيتها وهي تفتتح مهرجاناً أسمتـه مهرجـان السـلام في مدينـة زغرب ، والتقيت بقربها ابنتها التي لم أرهـا ، وزوجهـا الـذي قتـل ، وتواصلت الصور حتى الصباح.وحين أفقت من نومي وجدت المائدة بكل ما فيها من أطايب الطعام موجـودة في وسـط الغرفـة .. لم أَمَسَّ منها أي شيء ، فقـد غلبـني النـوم ثانيـة ، ونمـت وعندمـا استيقظت أحسست أن كل هذا الطعام لا لزوم له ، ومددت يـدي إلى التلفـون لأستمع إلى صوت زوجتي وهي تبكي : لقد عشـنا أيامـاً مـن الضنـى والعذاب بغيابك ، وعلمنا بما جـرى لـك : فـأين أنـت الآن ؟ عندمـا قلت لها أنني الآن في الفندق وأن كل شيء على ما يرام ، قـالت لي : تكلم مع أمك .

تحدثت أمي طويـلاً .أحسسـت أنهـا منزعجـة هـي الأخـرى أكثر من زوجتي وإن كانت لم ترد أن تظهـر ذلـك لهـا : رجوتهـا أن تسامحني لأنني رفضـت أن أستمع إلى مـا قـالت وأصرف النظـر عـن السفر إلى سراييفو .

سراييفو التي أحببتها وإن كنت لم أرها حتى الآن .

ترى هل يأتي اليوم الذي أذهب فيه إليها لأزورها ؟

لا أدري وإن كنت قد قلت لنفسي : لا بد من أن أراها يوماً ما . سـأراها ولكـن ليـس عـن طريـق مطـار زغـرب ، مطـار الفـزع والخوف والليالي النابغية الطويلة.

(الفصل الحادي عشر)

لم أكن أظن أنني سأغير رحلتي ، عندما توقفت أمـام مكتـب الطيران الموجـود في الفنـدق ، كمـا أنـني لا أدري كيـف طلبـت مـن السيدة الـتي كـانت وراء المكتـب بفستانها الأنيـق وشـعرها الأشـقر البديع أن تحاول إيجاد مكان لي في طائرة الغد إلى لندن ، وأن تحجز لي في فندق الإنتر كونتينتال . قالت وبصوت يميـل إلى المـرح : سـأعمل على تنفيـذ رغبتـك ، وسـأبعث بكـل مـا أتخـذه مـن ترتيبـات علـى صندوقـك في الاستقبال .. تركتهـا .. وبـدأت أفكـر مـاذا سـتقول زوجتي وأمي عن هذا الترتيب الذي اتخذت . قلت في نفسي : أفضـل شيء أعملـه هـو أن أتصـل بـأختي في لنـدن..هاتفتهـا فلـم أجدهـا ، وتركت لها رسالة في الفندق لتحدثني هي ..في هـذه الأثنـاء تسـلمت تذكرة السفر ، وعرفت موعد السـفر والوصـول إلى مدينـة الضبـاب

عندما بدأت ألملم حوائجي وأضعها بلا ترتيب في الحقيبة التي لاقت الأمرين معي دق جرس الهاتف لأسمع صوت أختي التي رحبـت برؤيتهـا لي .قلـت لهـا: أريـد فـوراً أن أرى زينـب لأطمئـن عليهـا ، وبعدها سأغادر إلى باريس لأرى أسرتي . ورجوتهـا أن تتحـدث إلى

أمي وزوجتي وتختار ما تريده من عذر لي لكوني سأسافر إلى لندن . قلت لها : إن أفضل طريقة أن تقول لهم بأن سفري إلى لندن كان بطلب من الجريدة . ضحكت أختي و لم تقل شيئاً . في مطار لندن كانت أختي وزوجها في استقبالي ، فرحت كثيراً بلقائها ، وسألتها عن زينب وقلت لها بأنني أريد أن أراها فلم تمانع ، وقالت بأنها قد قالت لزينب عن ذلك ، لكن زينب طلبت منها ألا تفعل ، ربما لأنها لا تريدك أن تراها وهي على هذه الحالة .

سألتها عن حالة زينب فإذا دموعها تنهال على خديها فعرفت أنها في حال مرضي خطير .

قالت أختي وكأن صوتها يأتي من قاع بئر عميق : لن تراك زينب يا أخي لقد فقدت عينيها ضمن ما فقدت ..يعني هذا أن هناك أشياء كثيرة فقدتها هذه العزيزة...

وبهزة من رأسها قالت أختي : نعم ! قولي لي كل شيء قالت : أعتقد أنك تراها بنفسك ، وتتحدث إليها رغم أنها لا تريد ذلك ، لكني سأستأذنها خصوصاً وأنها تعرف ما حصل لك في رحلتك ، وصلنا الفندق وأمضيت الليل ساهراً ، لم أعد أفكر في أي شيء سوى زينب هذه العزيزة التي لقيت ما لقيت من قومها .

في الصباح جاءت أختي بمفردها لتأخذني إلى زينب : قالت بأنها رضيت بعد حديث طويل أن تراها : ذهبت معها وأنا أفكر في هذا الذي أراه وقلت في نفسي : هل هناك أفظع من أن يفقد الإنسان بصره .

أنا وأختي كنا صامتين أثناء ركوبنا سيارة الأجرة حتى إذا ما وصلنا إلى المستشفى وأخذنا المصعد إلى الصالة الكبرى التي توصلنا إلى غرفة زينب كانت هناك فتاة بوسنية لا أعرفها ، قدمت نفسها لي بأنها ابنة أخ يوسف وكانت تدرس الطب في لندن .رأيتها تلبس ملابس الأطباء البيضاء وعلى صدرها سماعة . عرفت منها أنها نجت من أن تصاب كما أصيبت خالتها،لأنها كانت بعيدة عن سراييفو .

حمدت الله على أنها بجانب خالتها ورجوتها أن تتخذ من الأسباب كل ما يساهم بإدخال السرور على زينب فلقد حلت بزينب أشياء كثيرة ، لكنها لم تفقدها صوابها رغم كل ذلك .

في غرفة زينب التقيت مع الوجه الذي أعرف . كان شعرها مرتباً . عيناها للذي لا يعرف أنها لا ترى لا يمكن أن يظن ذلك . مدت يدها إليّ وكأنها تعيد إلى الذاكرة ليالي الشباب في القاهرة .وبدأنا نتحدث كثيراً .قالت لي كل شيء وعرفت أن زينب

قد تسلل الشلل إلى نصفها نتيجة الضرب المبرح الذي كانت تتعرض له أثناء سجنها . لم تخف عليَّ زينب أي شيء .قالت كل شيء .. كل شيء وكأنها تتحدث إلى نفسها عن كل ذلك الذي مر بها .

بكيت وأختي كثيراً ، لكن زينب لم تبك . قالت بصمت : هذه إرادة الله، وسينتقم الله لي من كل أولئك الذين حرموني نعمة البصر ..

لقد قربوا إلى عينيها أجهزة كهربائية كثيرة ، كانوا يتناوبون على إيصالها لجسدها وعينيها بأسلوب مقزز ، لأنهم كانوا يربطون جسدها بحبال طويلة بعد أن يأمروا إحداهن بأن تنتزع منها كامل ملابسها . يضحكون وهم يمارسون أذاها بأيديهم وأرجلهم وأدواتهم .هؤلاء الوحوش ، هل يمكن أن يتركوا بدون أن تُستَعاد حقوق كل هؤلاء منهم ؟

قالت : هل تصدق بأن من كان يقوم بإيذائها واحد من جيرانها حاول أن يتقرب إليها ذات يوم وصدته ولم تتحدث عن ذلك لزوجها خوفاً من أن يقتله فهي تعرف زوجها جيداً ، ولهذا آثرت الصمت حتى جاءت الحرب ، فكان هو في مقدمة من أمسك بها وبزوجها أيضاً .

أحسست بدوار كبير جعلني أغفو، أفقد وعيي بعض الوقت ، ولم أحس بمن كان حولي إلا بعد أن قدمت لي ابنة أختها شيئاً من العلاج ، فقد كان حديث زينب فوق تحملي وقدراتي ، فلكم تعذبت هذه الإنسانة التي أراها اليوم أشبه بملاك رغم بصمات السنين من جهة وآلام التعذيب من جهة أخرى .

(الفصل الثاني عشر)

ويستقر بي المقام هذه المرة في هذه المدينة التي أحبها وأحبها معي الكثيرون فمدينة النور تعتبر من أجمل وأحلى مدن العالم بشوارعها ومتاحفها وتاريخها وفنانيها ورساميها الذين انتشرت شهرتهم في الآفاق .

زوجتي تحمد الله على سلامة الوصول وأمي كذلك ، وإن كانت بالفعل منزعجة لأنها المرة الأولى التي أخالف فيها رغبتها ..أما أولادي فقد كانوا دائمي الاتصال بي من جدة .

أخذت أقرأ الصحف بينهم ، فقد حرمت طوال كل تلك الأيام من معرفة أي شيء عما يجري في هذه الدنيا ..وأصعب شيء على الصحفي أن تكون الكلمة والحرف بمنأى عن عينيه .

حمدت الله لأن الجريدة لم تنشر موضوعي على صفحاتها ، ورجوتهم أن يستمروا في هذا الوضع .

زوجتي سألتني عن زينب ، لم يكن سؤالها بريئاً مائة بالمائة .تناسيت النغمة التي كانت تبطن السؤال وأخبرتها بكل ما رأيت على زينب .أحسست بأنها تجهش بالبكاء ودموعها تتساقط

من مآقيها ، وعقدة الذنب تبدو في محياها ،وقالت لي : ربما أكون مقصرة لأنني لم أزرها عندما كنت في لندن .وبنفس النغمة المبطنة أجبتها لقد فعلت ذلك من أجلك ومن أجلي أيضاً وهذا يكفي قالت : لا ، وإنما يجب عليّ أن أتصل بها وأدعوها لأن تأتي لبلادنا لأداء العمرة ، فهذا أقل ما يمكن أن أقدمه لهذه المسكينة .

نظرت إلى وجهها نظرة حب ، فهذه الإنسانة الرائعة التي واكبت نزواتي سنوات الزواج كلها دون أن تتحدث عني إلا بكل خير تستأهل مني كل حب وتقدير .

وارتاحت نفسي وهدأت بعض الشيء ، وأخذت أواصل الخروج في شوارع المدينة الجميلة وأمضي كثيراً من الوقت على كراسي مقاهي الشانزليزيه فهذه المقاهي ليست فقط لشرب القهوة وإنما لممارسة أشياء كثيرة في مقدمتها الحوار الأدبي والسياسي والصحفي الذي كنت أعقده مع أصدقاء جاؤوا من أماكن كثيرة .

جريدة اللموند تطل من بين أيدي كثير من الناس ، فالسياسي والصحفي الذي يأتي المقهى دون أن يمسك بهذه الجريدة لا يمكن أن يسمى صحفياً ، حتى إنني لاحظت أحد الإخوة ممن أعرفهم وينتمي إلى الصحافة الخليجية يحمل هو الآخر الجريدة ..سألته

وانا اعرف انه لا يجيد الفرنسية ، فقال لي بأنه يشتريها لتقرأها له ابنته التي تخرجت من كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية .

ضحكت وضحك معي الحاضرون ، لكن صديقنا أسرّها في نفسه حتى إذا رأى أسرته تمشي في الشارع خرج إلى ابنته وطلب منها أن تأتي لتقرأ لنا الجريدة وقد كان فأحسسنا بأن الرجل كان صادقاً ، فهو قد ضرب عصفورين بحجر واحد نال احترام الذين يجلسون في المقهى ومعرفة ما يكتب على صفحات الجريدة بواسطة ابنته .

المقهى يعج بالناس ، والصحفيون يتحدثون عن سلام البوسنة ، واجتماع دايتون إلى آخر ما تم ويتم . كل واحد منهم يحس الثقة بأن موضوع البوسنة سينتهي إلا صاحب اللموند الذي قال وبالحرف الواحد : لن يأتي السلام للبوسنة كما نريد ، فهؤلاء الصرب يتلاعبون دائماً بالانفعالات ، وعلى العالم أن يكون يقظاً أمام تلاعبهم .أصغيت بهدوء لكل ما يقول ، وأخذت أفكر فعلاً في هذا الكلام الذي يدل على أن قراءة ابنته لصحيفة الليموند قد أعطته كثيراً من الفهم لا تظنوا أنني أقلل من قيمة الصديق الصحفي ، أقول بأن الصحفي الذي يجيد لغة أي لغة ، أقدر على فهم ما يجري في

العالم من ذلك الذي لا يعرف إلا لغة قومه : اتصلت من بيتي بزينب ، تحدثت إليها طويلاً ، وتحدثت زوجتي هي الأخرى معها وبعد أن انتهت طلبتُ الطبيبة هدى ابنة أختها ورجوتها أن تشعرني بما تحتاجه هذه المسكينة إذا رأت أنها في حاجة إلى أي شيء ، ودعوتها مع زينب لأداء العمرة : أمي كانت بجانبنا ، فطلبت هي الأخرى أن تتحدث إلى زينب حتى إذا ما أكملت حديثها قالت :يا بني ، عليك الآن واجب تجاه هذه السيدة التي فقدت كل شيء ولهذا أوصيك ألا تتأخر عن مساعدتها .

نظرت إلى وجه أمي وقلت : هكذا هي بلادنا ، تنتج الطيبة والأخلاق والعمل من أجل الآخرين ، فنحن من طينة تختلف عن الكثيرين ، لكننا نأمل أن يكون الجميع مثلنا ، فالمروءة جزء هام وكبير من الأخلاق .

ومضيت إلى غرفتي لأكتب لك يا قارئي قصة رحلة لم تتم ، نلت فيها صنوف العذاب ، لدرجة أحسست فيها أنني ضائع : وهكذا الإنسان لا يحس بالألم إلا عندما يذوقه .

أختي تحدثت معي من لندن قالت : إن علاج زينب قد أعاد إليها بعضاً من نشاطها الحركي ، وأنها بدأت تحرك قدميها في نشاط

لاحظه الطبيب ، وقد عزا ذلك كله إلى العوامل النفسية التي أصبحت تعايشها المريضة وطلب منها أن تساعده في زيادة هذا الإحساس من جانب المريضة ، وقد تحدثت مع زينب في هذا وحثثتها على أن تحاول استعادة ثقتها بالحياة .

ضحكت زينب من حديثي وقالت : ربما كانت الدعوة التي وجهت لي لأداء العمرة هي السبب ، فأنا متشوقة لأن ألتقي بكثير من الأخوات اللواتي عرفت أثناء دراستي .قلت لها : أنت محقة ، فدعوة العمرة التي قدمها أخي لك ربما كانت السبب ، لأنك مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدينك وعقيدتك ، وكررت عليها الدعوة هي والدكتورة هدى التي ترعاها ، ومنذ تلك اللحظة وصحتها في تحسن ، حتى إن طبيبها المعالج قال لي : يمكن لزينب أن تسافر إلى مكة المكرمة لأداء العمرة ، فلربما أعادت هذه الرحلة الحركة الكاملة إلى قدميها التي أشعر بأنها تستجيب استجابة كبيرة لعلاجي .

وها أنا ذا أقول لك بأنني قد عمدت إلى تأمين تأشيرة العمرة لها ولطبيبها من إخواني في السفارة السعودية الذين رحبوا بقدومها بعد أن عرفوا حكايتها .

لقد أحسست وكأن الجميع يريد أن يقدم خدمة لزينب .

وهكذا نحن يـا أخـي يضـيرنا أن تضـار أخـت أو أخ كمـا أضـيرت زينب .

بعد أيام تلقيت فاكسـاً مـن زينـب تقـول فيـه : انتظرونـي ، سأكون معكم وسألتقي بالفجر الـذي أشـرق نـوره مـن بطـاح مكـة المكرمة ، وسأسعد برؤية الكعبـة المشـرفة الـتي كنـت أود أن أراهـا بعيني ، ولكن يكفيني أن أراها بقلبي في هـذه المرحلة.ادعـوالي جميعـاً فأنتم أهلي وإخوتي وعشيرتي .

قرأت ما كتبت زينب على زوجتي وأمي وانخرطنـا جميعـاً في بكاء ونحيب لكل ما أصاب هذه المسكينة الـتي أخذنـا جميعـاً نناديهـا بالأخت زينب .